

وَإِخْتِ الْخَلْقِ الْغَضَبِ

الْإِيمَانُ

تَأَلِيفُ أُمِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
مَلِيحَةَ مَرْعِي الْعَدَلِ



دار الإيمانيات
للنشر والتوزيع

عبد السلام

الحَمْدُ لِلَّهِ

اهداءات ٢٠٠٢

دار الايمان

وَأَحْتَجُّ الْخَلْقَ الْعَظِيمَ

الْجَلِيلِ

تَأْلِيفُ أُمِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
مَالِيحَةَ مَرْعِيِّ الْعَدْلِ

دار الأمان
للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



حقوق الطبع محفوظة



دار الإيمان
شارع خليل الخياط مصطفى كامل اسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع - تليفون وفاكس ٥١٥٧٦٩٠ تليفون ٥١١٦١٩٦٠



E-mail: dar_aleman@hotmail.com

المقدمة :

الحمد لله الذى خلق كل شىء بقدر ، وخلق المخلوقات وكرم منهم البشر ، إذ اصطفاهم لعمارة أرضه ، وشرفهم بالعبودية له ، فقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٥٦) ﴿ [الذاريات : ٥٦] .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى الناس كافة ليهديهم سبيل الرشاد ، فمن استمسك بغيره واقتفى أثره فقد فاز ، ومن تولى وكفر فقد خسر خسراناً مبيناً .

وبعد :

فإذا كان رسول الله ﷺ قد جاء بالدين الحنيف لهداية البشر ، فإنه ﷺ هو روح الدين الحقيقية ، والترجمة الفعلية لمعاني هذا الدين العظيم ، كيف لا ؟
وديننا ليس نصوصاً تغطّ بين دفتى كتاب فى سبات عميق .
إنما هو عمل دؤوب ، وفكر متّقد ، وخلق رفيع ، وسلوك قويم ، ورسول الله ﷺ كان هو دابة هذا العمل ، واتّقاد هذا الفكر ، ورفعة هذا الخلق ، واستقامة هذا السلوك .

فمن أراد الوصول إلى حقيقة هذا الدين العظيم ، فعليه باتّباع خطى رسول الله ﷺ ، لا يحيد عنها ولا يزيغ ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، فلا يفلح السعى إلا على درب رسول الله ﷺ ، ومن طمح إلى بيت فى أعلى الجنة فمعراجة إليه هو خلق رسول الله ﷺ الذى زكاه رب العزة سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) ﴿ [القم : ٤] .

ومن عظمة أخلاقه ﷺ أن فيها صلاح البشرية أينما حلّت ووقتما وُجدت ، والتخلّى عنها إنما هو هدم لأسمى معانى الدين ، وتفويض لكل مقومات الحياة والعبادات بدونها إنما هى طقوس لا تسمن فى الدين ولا تغنى من جوع .

أما الأخلاق فى غير باب الدين فإنما هى نظريات - فى كثير من مراحلها - غير قابلة للتطبيق الواقعى ، وإن طُبّق شىء منها فإنما لفترة خاطفة لا تتعدى لمعان الفكرة التى قامت عليها ، ثم لا تلبث أن تخبو ، وها هى مدينة أفلاطون الخاوية على عروشها خير مؤيد لما نقول .

يقول الأستاذ / وحيد الدين خان فى كتابه الرائع « الإسلام يتحدى » : «إن الإيمان بالله يعطى الإنسان محركاً هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ، ومصدر قوة العقيدة ، العقيدة التى عبّر عنها السير وليام أوسلر بقوله : إنها قوة محرّكة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل » .

وربما يطيب لنا هنا نقل آراء بعض علماء التربية والاجتماع فى الغرب ، لا لشيء إلا لكونهم عاصروا المدينة اللا أخلاقية ، ورصدوا ما آل إليه المجتمع من انحلال وانهار فى ظل التخلّى عن العقيدة والإنسلاخ من الدين .

[الفيلسوف الألماني « فيخته » : الأخلاق من غير دين عبث .

الزعيم الهندي المعروف « غاندى » إن الدين ومكارم الأخلاق هما شىء واحد لا يقبلان الانفصال ، ولا يفترق بعضهما عن بعض ، فهما وحدة لا تتجزأ ، إن الدين كالروح للأخلاق ، والأخلاق كالجو للروح ، وبعبارة أخرى : الدين يغذى الأخلاق وينميها وينعشها ، كما أن الماء يغذى الزرع وينميه .

يقول القاضى البريطانى « ديننج » : بدون الدين لا يمكن أن تكون هناك أخلاق وبدون أخلاق لا يمكن أن يكون هناك قانون ، الدين هو المصدر الفذ المعصوم ، الذى يعرف منه حسن الأخلاق من قبيحها ، والدين هو الذى يربط الإنسان بمثل أعلى يرنو إليه ويعمل له ، والدين هو الذى يحدّ من أنانية الفرد ، ويكفكف من طغيان غرائزه ، وسيطرة عاداته ، ويخضعها لأهدافه ومثله . ويرى فيه الضمير الحى الذى على أساسه يرتفع صرح الأخلاق .

الفيلسوف « كانت » : لا وجود للأخلاق دون اعتقادات ثلاثة : وجود الإله ، وخلود الروح ، والحساب بعد الموت [^(١)] .

وهكذا فإن الدين بلا أخلاق طقوس جوفاء لا طائل تحتها ، كما أن الأخلاق بلا دين صرح قد انهيار قبل أن يقوم من مقامه .

والأخلاق الحقّة إنما تؤخذ من باب الدين الحق ، والدين الحق إنما هو رسول الله ﷺ الذي كان قرآناً يمشى على الأرض ، ولهذا فمن أراد العبادات فعليه برسول الله ﷺ ، ومن أراد الأخلاق فعليه برسول الله ﷺ ، ومن أرادهما معاً فعليه برسول الله ﷺ .

وها نحن قد حوّمنا حول [**واحة الخلق العظيم**] ، على صاحبها أفضل صلاة وأزكى سلام ، علّنا نحظى منها بنصيب ، وارتشفنا من فيض رحمته وتواضعه ووفائه وكرمه ، وصدقه وأمانته ، وحيائه وزهده وشجاعته .
وموعدنا إن شاء الله تبارك وتعالى في هذا الكتاب مع [حلمه ﷺ] ،
ذلك الخلق الرائع الذى يطفىء الأحقاد ، ويسل سخائم الصدور ويحيل العدو إلى وليّ حميم .

ولأن كانت الجزيرة العربية - بما كان فيها من حمية ورعونة ، وقبط في مناخها يقابله إتقاد وفوران في انفعالات أصحابها ومشاعرهم - قد كانت فى أمسّ الحاجة إلى خلق الحلم ، لضبط الإنفعالات وتحكيم العقل عند احتدام المواقف ، وكبح جماح الغضب وإطفاء ثورته ، فإننا اليوم - مع سرعة إيقاع الحياة ، وغلبة الماديات ، وسيطرة الطابع الثورى المتوثب على المواقف والأحداث - لنحن أشد حاجة إلى ذلك الخلق الكريم [**خلق الحلم**] لننجو

(١) تربية الأولاد في الإسلام الأستاذ / عبد الله الناسح علوان .

بأنفسنا من هذا الهوس الإنفعالي ، ونستروح به من عناء الحياة وقسوة
ضغوطها .

ولكى نتعرف على الحلم فى أروع صورة ، والتي هى نقطة محمودة بين
مذمومين - بين الإنفعال الأحمق والتبلد الآخرق - هيا بنا نستأذن فى أدب
يليق برسول الله ﷺ ، لنحى معه وقتاً مباركاً ، نعيش فيه حلمه الرائع ،
محاولين فى صدق نيته ومضاء عزم التخلق به .
فهل تأذن لنا سيدى يا رسول الله ...

كتبه

أم عبد الرحمن

مليحه مرعي العدل

غفر الله لها ولوالديها وللمسلمين





واجهة الخلق العظيم - الحلم -

واجهة الخلق العظيم [الحلم]

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

- ١ - بين يدي الكتاب .
- ٢ - الفصل الأول : حلمه ﷺ على الرجال .
- ٣ - الفصل الثاني : حلمه ﷺ على العصاة .
- ٣ - الفصل الثالث : حلمه ﷺ على النساء .
- ٤ - الفصل الرابع : حلمه ﷺ على الأطفال .
- ٥ - الفصل الخامس : حلمه ﷺ على الخدم والعبيد .
- ٦ - الفصل السادس : حلمه ﷺ على غير المسلمين .
- ٧ - الفصل السابع : حلماء في مدرسة الرسول ﷺ .

بين يدي الكتاب :

ما أروع التجوال في روضة أخلاق الرسول الكريم ﷺ ، ما أجمل استنشاق عبقها الذكي الطاهر ، والاستمتاع بذلك الفيض الرائع ، الذي تغتسل فيه النفس المثقلة بأدران الإثم وذل المعصية وهمّ التقصير ، فإذا بها خفاقة في سماء الجد ، شفيفة بنور الإيمان .

ما أطيب أن يلقي العقل المشوش المجهود ، الباحث عن الحقيقة بنفسه بين جناتها ، متأملاً باحثاً ، فإذا به مستنير الفكر ، مهتد الخطى موصولاً بالله تبارك وتعالى ، والدوحة الرائعة التي تتأملها تلك المرة ونستضيء بفيض سناها ، دوحة نضرة متألقة ، وارفة الظلال ، دافئة المشاعر ، ينتعش المستظل بها أيما انتعاش ، ويسمو أيما سمو ، حتى يفيض على من حوله رقة وسماحة وعفوا وجمال روح - إنها دوحة الحلم - ، والحلم صفة جليلة من صفات الله عز وجل خلق بها رسول الكريم ﷺ ورباه عليها ، فكان هو الكثير الحلم ، الواسع العفو ، المحسن دائماً لكل من أساء . والحلم هو « كف النفس عن الشر أو مقابلة الأذى بمثله ، والحلم منوط بالقدرة على العقوبة أو الانتقام »^(١) .

غير أن الحلم كريم مفضل يتغاضى عن الأذى ويرتفع على الغيظ ، بل ويتجمل بالإحسان إلى المسيء ، وهل تكون ذروة تلك المكارم إلا لرسول الله لهذا « كان عليه الصلاة والسلام القدوة في سعة الصدر ، وسماحة النفس التي تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها ، أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء وفيهم الذين يسألون ويجادلون ليتبينوا » والذين لا يريدون من الجدال إلا اللجاج والعناد ، والحلم في

١٠٠ من أخلاق نبي ﷺ

كل حالة من هذه الحالات هو القوة النفسية التي لا تغنى قوة غناءها .
 وهو عليه الصلاة والسلام المعلم الأول ، مبلغاً عن ربه ، ومفصلاً وموضحاً
 ومطبقاً لما أوحى إليه ، فيذهب إليه هذا فيسأله ، ويلقاه ذلك فيستزيده ، ويجلس
 إليه آخر فيستفتيه ، ويحار أناس في حكم فيستوضحوه ، ويحزب الأمر آخرين
 فيسرعون إليه يلتمسون عنده الرأي الذى يجهلونهُ ، ومن بين هؤلاء كبار
 وشباب ، ورجال ونساء ، وذووا كياسة ولباقة وأصحاب غلظه وجفاء ، ومسلمون
 أشربت قلوبهم الإيمان ، ومسلمون حديثوا عهد بالإسلام ، وأذكياء تكفيهم
 الوجازة ، وآخرون يعوزهم الذكاء ولا يغنيهم إلا التفصيل ، فلا بد من صدر
 رحيب يتسع لهؤلاء ، ولا بد من حلم يسع ما قد يندر مقصوداً أو غير مقصود ،
 ولا بد من ضبط النفس عند الضيق والغضب وما ينجم عنها من آثار ^(١) .

وما أعظم حلم رسول الله ﷺ ، وما أوسع عفوه ، وما أغض طرفه عن حظ
 نفسه فى الانتقام إلا أن يكون لله ، وهاهى عائشة رضى الله عنها تنبئك عن
 رسول الله ﷺ قائلة : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما
 لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ
 لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها » ^(٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لأشج عبد
 القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » ^(٣) .

فالحلم والأناة من أدوات النجاح والفلاح فى حياة الإنسان عامة والدعاة
 إلى الله خاصة ، ذلك أنهم مرشدوا البشرية إلى طريق الفلاح وقائدوا الناس إلى

(١) من أخلاق النبى ﷺ

(٢) صحيح البخارى ، باب صفة النبى ﷺ ، كتاب بدء الخلق

(٣) رواه مسلم

طريق الله المستقيم ، ولا يصلح لتلك المنزلة من بأخلاقهم وعورة ، أو بقلوبهم
قسوة ، أو من تسيطر على انفعالاتهم غضبة حمقاء .

لهذا فقد نصح رسول الله ﷺ لكل داعٍ إلى الله ، وكل مسترعٍ في خلق
الله ، حيث قال ﷺ : « إن شر الرُعَاءِ الحُطَمَاءُ ، فإياك أن تكون منهم » ^(١) ،
والحطمة : أى القاسى العنيف .

فالحلم تاج الخلق ، ووقار العقلاء ، وغيظ الشيطان يقطع عليه سبيل
التحريش بالمؤمنين بعضهم بعضاً ، وما أبصر الشاعر بتلك الحقيقة إذ يقول :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة	فكن أنت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه	كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى	ولا مانع خيراً ولا قائل هجرا



الفصل الأول

[حلمه ﷺ على الرجال]

- المبحث الأول : فإنما بعثتم ميسرين .
- المبحث الثاني : فضحك ثم أمر له بعتاء .
- المبحث الثالث : خيركم أحسنكم قضاءً .
- المبحث الرابع : إكلأ لنا الليل .
- المبحث الخامس : أن تأمرني بحسن الأداء .

المبحث الأول

[فإينما بحثتم ميسرين]

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم ردّ جوابه ^(١)
 إنه رسول الله ﷺ ، أوسع الناس صدراً ، وأبعدهم غضباً ، إذ أنه يرى أناساً
 كانوا يفتون إلى أمس قريب فى جاهلية مزرية بما فيها من حماقة منطق ،
 وسفاهة عقل ، وسوء خلق .

يرى محسنهم ومسيئهم ، وعاقلهم وسفيهم ، وحكيمهم وطائشهم .
 ولذا كان الحلم بما ينطوى عليه من حسن الخلق ، وحكمة المنطق ، وصدق
 الإخلاص فى النجاة بهم قد أخذ عليهم مجامع قلوبهم ، ورد شاردهم إلى
 الحق كما تعود الشاة الضالة إلى مرتعها الخصب حين يجهد الراعى نفسه فى
 البحث عنها حتى يستنقذها من تربص الذئاب بها .

فها نحن فى مسجد رسول الله ﷺ فى أطهر بقاع الأرض ، حيث الصلاة
 والذكر والتسبيح ، حيث القلوب ترفرف بجناحي الإيمان والتقوى لترتع فى
 ربوع الجنة ، والأنفس ترتقى بجناحي الطهر والشفافية لتصل أسباب السماء ،
 والأجساد تصطف اصطفاً الملائكة فيباهى الله تبارك وتعالى بهم ملائكة
 السماء .

فى هذا الجو السماوى الرائع ، فى ذلك المكان القدسى الطاهر يحدث ما لا
 تستسيغه عين ، ولا يستوعبه عقل ، ولا يصدق قلب ، ماذا يحدث ؟!
 يقوم أعرابى ، ليصلى ؟ ، ليتخلق فى حلقة علم ؟ ، ليستفتى رسول الله ﷺ

فى أمر حزبه ؟ ليقم المسجد وينظفه ؟ بالطبع لا ، ليس لسبب من تلك الأسباب قام ، لماذا قام الأعرابى إذا ؟ .

فلنصغ لأبى هريرة رضي الله عنه إذ يخبرنا ذلك الخبر العجيب فيقول : « قام أعرابى فبال فى المسجد ، فتناولوا الناس ، فقال لهم النبى ﷺ : دعوه ، وهريقوا على بوله سجلا من ماء أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » ^(١) .

قام الرجل ليبول فى المسجد وبما يمس ما قام له ، إذ انتهك حرمة المسجد ولم يرع حق الله فيه ، فتناولوا الناس ، وحق لهم أن يتناولوه ، إذ أثار حفاظهم ، وأشعل نار الغيرة فى قلوبهم على حرمة مسجدهم ، لهذا قام المربى الكريم ﷺ ليهدئ من ثورة الشائرين ، ويضمّد جرح المشاعر النازف ، ويعلم الجاهل ويهدئ من روع المروع ، فقال لصحابته الكرام - رضى الله عنهم - : دعوه ، لا تفرّجوا الرجل .

دعوه وأعذروه بجهله ، وأرحموا حداثة إسلامه ، إنه أعرابى لا فضل لبقعة من الأرض على أخرى عنده إلا أن تكون أكثرأ كلاً وأروى مورداً .

أعرابى لم يتأدب بعد بآداب الإسلام ، ولم يرتو من نبعه الصافى ، وهامى قد حانت الفرصة ليتعلم ويتهذب فلا تنفروه ، دعوه لا تروّعوه ، وأصلحوا بعلمكم أنتم ما أفسد هو بجهله ، ليعلم أنه أخطأ ويتعلم كيف يعالج الخطأ ، أهريقوا على بوله سجلا أو ذنوباً من ماء .

بتلك البساطة الودودة ، وبذلك الحلم الرائع ، وبهذا الذكاء الفذ لم يتعلم الرجل وحده ، وإنما تعلم معه الصحابة الكرام ، وتعلمت الأمة من بعدهم تعلم

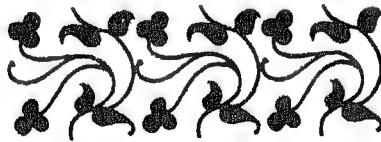
(١) صحيح البخارى : باب صب الماء على البول فى المسجد ، كتاب الوضوء .

هو كيف لا يسىء إلى المسجد مرة أخرى ، وتعلموا هم كيف يتجاوزوا عن
المسيء ، وكيف يصلحوا ما أفسد ، وتعلمت الأمة فقه الطهارة وتعلم الدعاة
كيف يكون الحلم في الدعوة .

ثم أطلقها رسول الله ﷺ منهجاً للدعوة وخلقاً للدعاة « إنما بعثتم ميسرين
ولم تبعثوا معسرين »

أنتم أيها المسلمون إذا أصحاب رسالة ، وصاحب الرسالة أبداً لا يكون
سريع الغضب ، ولا فظاً عليظاً ، إنما ميسر إذا كان التيسير في نطاق المباح
الشرعي ، ولذا يجب أن يتحلى الداعية بالحلم الواعي ، والصبر الجميل تأسيماً
بقائده الأعظم وقدرته الحليم ﷺ .

وكذلك حض على اتباع اللين	والحسنى وجذب الناس بالرفق
لا بالفظاظة واحتقار الرأي أو	إملاء هذا الدين بالشدات
ونهى عن العنف المسيء وفحش قو	ل قد يثير النفس والعزات
وسياسة الإقناع أوحسن التفاهة	هم عنده في أول الدرجات (١)



المبحث الثانى

[ثم أمر له بعطاء]

مرة أخرى مع الأعراب ، والحديث عن الأعراب حديث ذو شجون ، إذ الأعرابي بقسوة عيشه وكثرة ترحاله ، قد اكتسب لساناً فصيحاً لكنه خشناً لم يدرج على الرقة ، ولم يعرف اللين يوماً ما ، ولم يكن له مع كثرة الحل والترحال فرصة لتدارس الآداب والأخذ منها فى مختلف مناحى الحياة بنصيب ، ولهذا فقد انطبعت غلظة معيشته على شخصيته ، فأصبح غليظ الطبع حاد الإنفعال فيه قسوة ورعونه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعالج غلظتهم بالحلم وأذاهم بالصبر ، وجفوتهم بالبشاشة واللين .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كنت أمشى مع النبي ﷺ وعليه برد فخراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت في حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال : مر لي من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » ^(١) .

صوات الله وتسليماته على معلم البشرية الخير إلى يوم الدين .
رجل معوز ، أُلجأته الحاجة إلى السؤال ، والحاجة تذلل صاحبها وتقعده كسير النفس ، خفيض الصوت ، حى الطرف ، يتودد الناس إستدراراً لعطفهم واستجلاباً لخيرهم « غير أن هذا السائل كان على العكس من هذا فلم يحسن السؤال ، ولم يجمل فى الطلب ، ولم يحفظ للمسئول ﷺ قدره ، ولم يرع

(١) صحيح البخارى : باب ما كان النبي ﷺ يعطى المؤلفة قلوبهم « كتاب الجهاد والسير .

حقه ، رغم أنه هو السائل المحتاج المعوز ، ورسول الله ﷺ هو المسئول المرجو عطاءه ، المؤمل خيره .

ولم يسيء الرجل في الطلب وحسب ، ولم يجفو في السؤال وفقط إنما تطاول على الذات النبوية الشريفة وبغى وطمع وجذبه جذبة شديدة أثرت في عاتقه الشريف بأبى هو وأمى ونفسى التى بين جنبي ، أى عاتق ذلك الذى تأثر وتألم ؟ ، إنه لأعظم رجل ولدته أنثى إلى يوم الدين كان من الممكن أن يقول رسول الله ﷺ « يا صحابة رسول الله » فتجيبه آلاف القلوب « لبيك لبيك » ، وتجيبه آلاف السواعد بآلاف السيوف فيبتدروا المسيء جزاءً وفاقاً لما ألحق من أذى بالرسول العظيم ﷺ ، وحق للرسول ﷺ أن يقول وحق لصحابته الكرام أن يفعلوا .

ترى ، ما الدافع وراء تلك القسوة الغاشمة ؟ .

أيظلم أوقعه رسول الله ﷺ على الرجل ؟ .

حاشاه أن يقر الظلم من غيره ، فضلاً عن أن يظلم هو ؟ .

ألحق ضاع له عند رسول الله ﷺ .

ألاستثنى رسول الله ﷺ بطيب العيش ورغده دون الآخرين ؟

كلا وحاشا . ماهى طلبة الرجل إذا ؟ .

مرلى من مال الله الذى عندك !! يال الدهشة ، يسيء إليه وهو يطلب إحسانه ! يجهل عليه وهو يرجو خيره ! ، إنه العجب والدهشة ، غير أن قول علي بن أبى طالب عليه السلام ربما يهدأ من دهشتنا بعض الشيء ، إذ يقول : من أوكد أسباب الحلم ، الرحمة للجهال ، وذلك من خير يوافى رقة ^(١) ، وما

(١) أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى - رحمه الله - .

تلك الحكمة وذلك الحلم فى عليّ عليه السلام إلا بعضاً من حكمة رسول الله ﷺ وحلمه ، فمن يحلم إن لم يحلم هو ؟ ، ومن يصبر إن لم يصبر ؟ ، ﷺ ، إن الرجل لم يتلق آداب المعاملات ولم يتعلم حسن الطلب ولا احترام المنعم ، ولا اكتسب حلاوة اللسان ولا صلاوة الكلام ، ولم يتدرب على النفاق والمداينة ، ولم يعرف أساليب اللصوصية وطرق الصولية .

إنما هو بدوى بغلظة البادية ، قاس بقسوة طلب الرزق فيها ، بيئته إذا قد انطبعت فيه بلا وعى منه ولا اختيار ، لم يقصد الرجل أبداً النيل من رسول الله ﷺ إنما كما يضرب بإصرار الأرض طولاً وعرضاً طلباً لمائها ومرعاها ، يجذب الرسول الكريم ﷺ جذباً شديداً طلباً لخيره وعطائه ، التفت إليه رسول الله ﷺ الغواص فى أغوار النفوس ، بتواضع جم ، وحب بالغ ، ورقة فياضة ، و ... وضحك ، ضحك ؟ ما أعظم الحلم وما أوسع الرحمة والرفقة .

لم يعذره فقط ، لم يتغاضى عن الإساءة فقط ، لم يسامحه فقط ، بل ضحك ، وهش وبش له ، وقابل إساءته بالإحسان ، وقسوته بالرحمة واللين ، وقبح الطلب بجميل العطاء ، محققاً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ألا ما أكمل هذه الإنسانية التى تثبت أن قوة الخلق هى درجة أرفع من الخلق نفسه ، فهذا فن الصبر لا الصبر فقط ، وفن الحلم لا الحلم وحده ^(١) .

(١) وحى القلم (ج ٢) .

المبحث الثالث [خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قِضَاءً]

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم : ٤] .

وهل فوق شهادة الله عز وجل شهادة ؟ .

هذا هو رسول الله ﷺ ، وتلك شهادة الله تبارك وتعالى له ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .

آية أخلاق تلك التي يشهد لها الله تبارك وتعالى بالعظمة ، وأى تعظيم يكون ؟ ، لا شك أنها فوق احتواء العقول ، وأبعد من أن يحتويها خيال . لكن معنا الآن قطرة ندية من تلك الأخلاق الرائعة يهدينا إياها أبو هريرة رضي الله عنه فيقول : « إن رجل أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ ، فهم به الصحابة » فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقال ، ثم قال : أعطوه سناً مثل سنه ، قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال : أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاءً ^(١) .

يا بئى أنت وأمى يا رسول الله ، ما أحلمك ، وما أكرمك ، وما أبلك ، وما أعظم ترفعك عن حظ نفسك ، وأنت رسول الله ! وأنت إن أردت لعشت كأنعم ما يكون ملوك الأرض ، لكنك قد زهدت في الدنيا ، ورغبت عنها إيثراً لما عند الله عز وجل ، فكانت حياتك كفافاً ، بل هي ما دون الكفاف .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال

(١) البخاري ، باب لصاحب الحق مقال ، كتاب في الاستقراض وقضاء الديون .

ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ، فقلت : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه ^(١) ، وفي رواية أبياتهم فيسقيناه .

شهران متتابعان لا يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار ، ولا يطهى فيها طعام . وهو أكرم خلق الله على الله ، وله وحده خمس الغنائم ، وما أعظمها وأفرها . لكنه ﷺ كان ينفق كل هذا في سبيل الله ، فلا يبقى لنفسه إلا أقل القليل ، بل وربما اضطر ﷺ إلى الاستدانة ، لأجل مالا حياة للإنسان إلا به من طعام ، وربما ليعطى فقيراً آتاه ، وليس في يديه ما يعطيه ، ويستحي أن يرده صفر اليدين .

إن الشرف كل الشرف أن يطلب العظيم مطلباً من هو دونه ، ففي تلبية طلبه غبطة ، أى غبطة ؟ وفخار أى فخار . بل واكتساب مكانة وكرامة وفضلاً . فما بال ذاك الرجل ، يرتكب في حق رسول الله ﷺ هذا الفعل المشين ؟ ولم تلك الغلظة ؟ وهو الذى إزداد شرفاً وعلت مكانته حين طلب إليه رسول الله ﷺ حاجته .

ما تلك الجرأة الشنيعة ، التى استثارت غضبة الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، فهموا به لولا نهاهم عنه رسول الله ﷺ ، إنه رسول الله ﷺ الذى شرع الله سبحانه وتعالى للأمة آداب الحديث معه ﷺ فقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

(١) البخارى ، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ، كتاب الرقاق .

كَجَهْرٍ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ [السجرات] . [٢]

ومع ذلك فقد قال للصحابه الكرام « دعوه » لشأنه والتمسوا له العذر ، فإنه صاحب حق ، ولصاحب الحق مقال ، أعطوه سنا مثل سنه ، فإن لم تجدوا المثل فأعطوه الأمثل ، مكافأة له على جميل صنيعه ، إذا أعطى وقت الحاجة .
وخذوا أيها الأصحاب الكرام « وأنت أيها الرجل المطالب بحقه فى غلظه لا تنبغى لمسلم - فضلاً عن رسول الله ﷺ - وخذى أيتها الأمة المحمدية هذا الأدب الرفيع فى المعاملات » إن خيركم أحسنكم قضاءً .

عجباً لك أيها الرجل !

إن كان رسول الله ﷺ مدين لك بعرض من الدنيا قليل ، فإنك مدين له بدين مهما طال عمرك وحسن عملك لن تستطيع له قضاء « مدين له بانتشالك من مستنقع الجاهلية وحياة السائمة إلى رفعة الإسلام وكرامة المسلم ، وصلى الله وسلم وبارك على من دان له الخلق ، إذ كان به صلاح الدنيا والآخرة .



المبحث الرابع [اكلنا الليل]

يارب صل وسلم ما أردت على
محي الليالي صلاة لا يقطعها
مسبحاً لك جنح الليل محتملاً
رضية نفسه ، لا تشتكى سأماً
نزول عرشك خير الرسل كلهم
إلا بدمع من الإشفاق منسجم
ضراً من السهد أو ضراً من الورم
وما مع الحب إن أخلصت من سأم^(١)

هذا حال رسول الله ﷺ مع قيام الليل ، يقومه حتى تتورم قدماه وليظل بها
موصولاً بمولاه ، وهل للمحب أن ينام عن الحب أو يسأم لقياء فما الظن إن
كان المحب رسول الله ﷺ وحبيبه هو الله تبارك وتعالى ، إنه الخضوع والخشوع
، التزلف والمناجاة ، إنها روعة القرب من الله تقدست أسمائه في صلاة
تطوعت بها نفسه ، واستضاءت بها روحه فاصطفت لها قدماه وطارت بها
روحه . فكيف بصلاة فرضها الله تبارك وتعالى عليه ؟ .

إن رسول الله ﷺ وهو حريص كل الحرص على أداء حق العباد لله على
أداء حق الله تبارك وتعالى أشد حرصاً وأدنى تقصير في أدائه يكون أشد إيلاًماً له
وكيف لا وهو حق الله تبارك وتعالى ؟ ، لهذا فما نام رسول الله ﷺ عن حق
من حقوق الله تبارك وتعالى في سفر أو حضر ولا عذر نفسه بشغل أو تعب .
إذا وصل به الجهد أقصى مدى ، وخاف أن تغلبه حاجة الجسم الملحة إلى
النوم وكل به من يوقظه حتى لا يسترسل في نومه فتضيع أو تتأخر الصلاة .

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة حتى إذا أدركه الكرى عرس وقال لبلال : أكلاً لنا الليل . فصلى بلال ما قدر له ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجهة الفجر فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً ففزع رسول الله ﷺ فقال : أى بلال . فقال بلال : أخذ بنفسى الذى أخذ بأبى أنت وأمى يا رسول الله بنفسك ، قال : اقتادوا فاقتادوا وراحلهم شيئاً ثم توضأ رسول الله ﷺ ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح فلما قضى الصلاة قال : « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى ، قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] ^(١) .

اكلاً لنا الليل يا بلال ، ارعه كما ترعى غنمك ولا تغفل عنه فیتفطت منك . كن أشد حرصاً على اليقظة من الراعى الأمين على غنمه .

إنها الصلاة يا بلال ، الصلاة راحتى ، قرة عينى وجنتى فى الأرض ، إنها حق الله . وجعلت قرة عينى فى الصلاة . إنها الصلاة التى ينتظرها رسول الله ﷺ بكل الشوق ليلقى بنفسه بين رياضها حيث يغتسل من هموم الدنيا وعنائها ، ولطالما اشتاقها فنادى « أرحنا بها يا بلال » .

الصلاة التى وقتها الله سبحانه وتعالى لحكمة لا يدرك منهاها ، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] ، الصلاة التى ظل رسول الله ﷺ يوصى بها حتى آخر لحظات عمره المبارك

(١) صحيح مسلم برقم (٦٨٠) .

« الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ^(١) .

الصلاة معراج الأرض إلى السماء ، مناجاة العبد لمولاه بلا واسطة ولا
ترحمان ، الصلاة فرقان ما بين الكفر والإيمان ، العهد الذي بيننا وبينهم
الصلاة ^(٢) ، لهذا ولعان كثيرة عظيمة في نفس رسول الله ﷺ . كان ﷺ
أشد ما يكون حريصاً عليها ، إذا احفظ علينا صلاتنا يا بلال .

إن كتائب الإيمان في حاجة إلى الراحة بعد مشقة السفر وعناء الجهاد
لإعلاء كلمة الله عز وجل في الأرض ، وهامى عائذة ترفرف بأجنحة النصر في
سماء المجد قد ظهرت المدينة المنور من شر أحفاد القردة والخنازير ، وقد آن
للكتائب المؤمنة أن تستريح بعد أن أسهرت عيونها وقلوبها وعقولها لله تبارك
وتعالى .

وها هو النوم يتسلل مشتاقاً إلى العيون المؤمنة المناضلة فيطبق الأجفان رويداً
رويداً على فرحتها الغامرة ، يأخذ القوم في ثبات عميق ، ولكي لا تُفوت
عليهم لذة النوم بعد السهر والجهد لذة الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى أقام
رسول الله ﷺ بلالاً حارساً يرعى الليل حتى إذا ما تناثرت بشائر الصبح البكر
على ذيل الليل المنصرم ، أيقظ هو القوم ليدعوا ليلتهم بالذكر والتسبيح
والتهليل ، ويرحبوا بالصبح القادم أكرم ترحيب ، بروعة الأذان ، وجلال
الصلاة .

وقبل بلال التكليف بفرحة حب ورضا نفس ، وقام يصلي ليطرد عنه غلبة
النوم ويتقوى بالمناجاة على مشقة السهر بعد جهد وعناء ، غير أن للبشر طاقة
محدودة وصبر لا بد وإن طال نافذ ، لهذا فقد نام الرجل ، قهر النوم آخر

(١) صحيح جاء عن أنس وأُم سلمة وغيرهما

(٢) مسلم

محاولاته للمقاومة فنام .

أخذ بنفسه الذى أخذ بنفس الجيش كله ، وراح فى ثبات عميق حتى استيقظ رسول الله ﷺ على وهج الشمس الملهب فى جو الصحراء الملهب « أى بلال ! إنه الفرع الحقيقى أن تضيع الصلاة ! ومن ؟ من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الأطهار .

أى بلال ، ألم أأتمنك على الصلاة ؟ .

وماذا يفعل من بذل طاقته وجهده وكان التكليف فوق الجهد والطاقة ؟ ، أخذ بنفسى الذى أخذ بأبى أنت وأمى يارسول الله بنفسك ، لم أفرط ولم أستهن بأوامر القيادة العليا ، الأمر فوق حرصى وفوق احتمالى يارسول الله ، إنها إرادة الله ، ولأن الأمر كله بيد الله ، ولأنها مشيئة الله تبارك وتعالى رغم حرص بلال وإصراره فقد رضى رسول الله ﷺ بقضاء الله ، فلم يعنف الجندي الذى غلبه النوم « فغزا موقعه الشيطان » فضرب على الآذان حتى طلوع الشمس ، إذا ارحلوا قليلاً عن هذا المكان ، ثم نصل ما فات ، ولن ترع يا بلال ، إنه العفو والمعذرة ، ومعهما رخصة رائعة وعطاء وفير ، إنه التيسير يرفع عن الأمة الحرج والمعاناة « من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه : ١٤] .

والنوم بها أولى ، إذ الأرواح فى قبضة الله تبارك وتعالى إن شاء أرسلها .
ما أحلمك يا حبيبى يارسول الله ، يامن كانت وصيتك النفيسة لصحابتك الكرام ، الحلم والبعد عن الغضب ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصنى قال : لا تغضب ، فردد مراراً ، قال : « لا تغضب » (١) .

ما أسعد حيشاً أنت قائده الأعلى وقيادته الراشده ، ما أغبط جندي أنت
مدربه ومعلمه القريب القريب ، الذي لا تحجبه عنك رتبة عسكرية ، ولا مكانة
اجتماعية ولا حواجز نفسية ، بل التواضع ديدنه ، والحلم مركبه ، والحنان
لجته .

المبحث الخامس

[أُنْ تَأْمُرُنِي بِحَسَنِ الْإِدَاءِ]

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقضى من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمنعه لا يجتنى النفع من لم يحمل الضرا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم المنى إلا لمن صبرا^(١)

ومن أصبر على الأذى من رسول الله ﷺ ؟ ، ومن أحلم منه على جهل
الجهلاء ؟ ، ومن أكثر احتمالاً منه للضر والإيلام ؟ ، ذلك أنه محمد ﷺ .

■ وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفس النبي أبلغ نفوس قومه . حتى لهو
في طباعه وشماله طبيعة قائمة وحدها . كأنها الوضع النفساني الدقيق ، الذي
ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء ، وكأن
الحقيقة السامية في هذا النبي تنادى الناس : أن قابلوها على هذا الأصل .
وصححوها ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانية »^(٢) .

لهذا فلا ينبغي لنا القول أن رسول الله ﷺ كان حليماً ، إنما الحلم هو
الذي استمد من خلق رسول الله ﷺ حقيقته وميزانه . فإذا أردنا البحث في
حقيقة الحلم ، والوقوف على معالنه الصحيحة ، فلنحى مواقف رسول الله ﷺ
في هذا الميدان ، ومنها ذلك الموقف الرائع من مواقفه ﷺ وكلها رائعة .
« أخرج الطبراني عن عبد الله بن سلام بإسناد رجاله ثقات قال :

(١) الدين الحلى من كتاب مجموعة من النظم والنثر ، وزارة المعارف العمومية ١٩٣٠

(٢) وحى القلم (٢-ح) مصطفى صادق الرافعي

لما أراد الله هدى زيد بن سعة ، قال زيد بن سعة : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتُها في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنين لم أخيرهما منه : يسبق حلما ، ولا تزیده شدة الجهل عليه إلا حلما ، قال زيد بن سعة : فخرج رسول الله ﷺ يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب ؛ فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال : يا رسول الله لي نفر من قرية بنى فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهاهم الرزق رغداً وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث ، فأنا أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء نغيثهم به فعلت ، فنظر إلى رجل بجانبه أراه علياً فقال : يا رسول الله ما بقي منه شيء . قال زيد ابن سعة : فدنوت إليه فقلت : يا محمد ، هل لك أن تبيعني تمرأ معلوماً في حائط بنى فلان إلى أجل معلوم كذا أو كذا ؟ قال : لا تسمى حائط بنى فلان ، قلت : نعم ، فبايعني ، فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطاه الرجل وقال : أعدل عليهم وأغشهم ، قال زيد بن سعة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث ، خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان في نفر من أصحابه . فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه أتيت فأخذته بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ قلت له : يا محمد ألا تقضيني حقى ؟ فوالله ما علمتم بنى عبد المطلب إلا مطالاً ، ولقد كان بمخالطكم علم ، ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ، ثم رماني ببصره فقال : يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذي نفسي بيده لولا ما أحاذر قوته (هكذا وردت) لضربت بسيفي رأسك ، ورسول الله ﷺ ينظر إلي في سكون وتؤده فقال : يا عمر أنا وهو كذا أحوج إلى غير هذا . أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن اتباعه . اذهب به يا عمر فأعطه حقه

وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته ، قال زيد : فذهب بى عمر فأعطاني
حقى وزادنى عشرين صاعاً من تمر . فقلت : بما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال :
أمرنى رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك وقال أى زيد : وتعرفنى يا عمر ؟
قال : لا ، قلت : أنا زيد بن سعه . قال : الحبر ؟ قلت : الحبر قال : فما
دعاك إلى أن فعلت برسول الله ما فعلت ؟ قلت له ما قلت ؟ ! ، قلت يا
عمر : لم يكن من علامات النبوة شيئاً إلا وقد عرفت فى وجه رسول الله ﷺ
حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ولا تزیده
شدة الجهل عليه إلا حلماً ، وقد اختبرتهما ، أشهدك يا عمر أنى قد رضيت
بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وأشهدك أن شطر مالى - فإنى أكثرها
مالاً - صدقة على أمة محمد ﷺ قال عمر : أو على بعضهم ، فقال زيد :
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وآمن به وصدقه وبايعه .
وشهد معه مشاهد كثيرة ، ثم توفي فى غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر ، رحم الله
زيداً ورضى عنه . (١)

هناك من البشر من وقفوا حياتهم للبحث عن الحقائق وصولاً إلى جوهر
الأشياء . وكان زيد بن سعه رضي الله عنه من هذا الصنف من البشر الحكماء ، الذين
لا تخدعهم المظاهر - وإن اطمأنوا لها - إنما ينقبوا فيما وراء الظاهر وصولاً
إلى حقيقة الجوهر . ولهذا فلم نصنفه فى « حلم الرسول ﷺ على غير
المسلمين » رغم أنه أثناء تلك الأحداث لم يكن قد أسلم بعد ، ذلك أنه كاد
فى مهمة البحث عن الحقيقة الكبرى ، التى تتصل مباشرة بمصير البشرية .
ليس الدينوى وحسب ، إنما فى الآخرة التى هى خير وأبقى ، ألا وهى حقيقة
الرسول الخاتم والرسالة المهيمنة ، والباحث عن الحقيقة لابد مدركها مهما

(١) الرسول ﷺ ، سعيد حوى

ارتقى إليها من أهوال .

وزيد بن سعنه رجل عالم حكيم ، يعلم كيف يسبر غور الرجال ، لهذا فقد اختار أن يغضب رسول الله ﷺ غضبة شديدة ، وبغير وجه حق ، عله يصل إلى حقيقة جهره . فالغضب يظهر ما قد يخفى من أخلاق الرجال ، ونجح زيد رضي الله عنه في الوصول إلى مبتغاه ، إنه أمام رجل لم ينل الغضب من نفسه منال . إنما يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلماً .

إنه هو الحقيقة التي كان يبغها زيد ، إنه رسول الله ﷺ بمثالية أخلاقه التي لا تنبغى إلا لنبي عظمة نفسه ، كريمة أخلاقه ، يسع جهل الجهلاء ، ويطفىئ ثورة الغاضبين ، ويهدأ من اضطراب المضطربين بوسع حلمه ، وجميل صفحه . بل وصلة من رُوع منهم - وإن كانوا هم الباغين - .

فكان حلمه ﷺ قد تمم كل علامات النبوة فيه لدى زيد ، فكان إيمان زيد إيمان يقين بما رأى فيه ﷺ من أخلاق لا تنبغى إلا لإمام الأنبياء برفعة نفسه التي هي « في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة لا يمكن أن تعرف الأرض أكمل منها ، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة » وجعلت في نصاب واحد ، ما بلغت أن يجيء منها مثل نفسه ﷺ ، ولكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدرة في محارثها ، أو تركيب كتركيب الماس في منجمه . أو صفة كصفة الذهب في عرقه وهي النفس الاجتماعية الكبرى ، من أين تدبرتها رأيها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتضحى^(١) .

(١) وحى القلم (ج٢) مصطفى صادق الرافعي .

الفصل الثاني [جلوه ﷺ على الصحابة]

- المبحث الأول : فقد غفرت لكم .
- المبحث الثاني : لا تشرب عليكم اليوم .
- المبحث الثالث : اللهم طهر قلبه .

المبحث الأول فقد غفرت لكم

ولما قسا قلبي وضائق مذاهبي جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاضمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظم^(١)

وهل لعبد أواب له رب تواب من ذنب ؟ ، وهل لرسول الله ﷺ الذى
خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجرات :
٨٥] أن يتعدها ؟ .

كلا وحاشاه ، إنما هو الصفح الجميل ، والعفو الواسع ، والحلم الرائع
العظيم الذى وسع جهالة الجاهلين ، وإساءة المذنبين ، لكن بعض الذنب
أشع « وخرقه أعظم » فهل له رتق ؟ ، وهل يسعه حلم ؟ ، إن الإساءة تلك
المرّة من هذا النوع الأخير ، خيانه مقصودة مدبرة « ماذا لو أصبح جندى من
جنود رسول الله ﷺ الذى رباهم على عينه ، عيناً عليه للعدو الذى يتربص
بالإسلام والمسلمين الدوائر ؟ .

ماذا لو أن واحد من الكتيبة المسلمة مطلع على العدة والعتاد والخطط
الحربية « ثم هو المؤمن على إخوانه ، المأمون جانبه الذى لا يتطرق الشك
إليه ، يعرى كتيبته ويكشف خبيثتها للعدو المتربص ؟ .

لنعرض الآن لقصة حاطب بن أبى بلتعة مع الخيانة العظمى كما عرضها
لنا عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى حديث طويل قال فيه :
« بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة

خاخ فإن بها طعينة ومعها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالطعينة فقلنا أخرجى الكتاب ، فقالت : ما معى من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه ، من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ، ما هذا ؟ قال يارسول الله لا تعجل علىّ إني كنت امرأ ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بهم أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ لقد صدقكم فقال عمر رضي الله عنه يارسول الله : دعنى أضرب عنق هذا المنافق قال : « إنه شهد بداراً ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ^(١) .

كاد حاطب بن أبى بلتعة رضي الله عنه أن يفسد على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين خطتهم ، ويغتال انتصارهم - لولا أنه محقق بوعد الله لهم - إذ بعث لقريش كتاباً ، يخبرهم خبر رسول الله ﷺ وخروجه إليهم ، وتفاصيل عن عدد الجيش وعتاده .

خيانة بشعة ، وذنب رهيب ، عقابه الموت مرات ومرات - إن كان للخائن أنفس بعدد أنفس رجال الجيش الذى خانهم - لا بد وأن يماثل العقاب بشاعة الذنب الذى اقترفه حاطب إذ خان الله ورسوله والجيش المنبعث لخلاص البشرية من أدرانها وهلكتها ، وعلم رسول الله ﷺ بتلك الكارثة المؤلمة ، ترى من أنبأه الخبر ؟ ، إنه العليم الخبير .

(١) البخارى (١١٢/٢) باب الجاسوس والتحسس والتبعض ، كتاب فى الجهاد والسير .

كيف فات حاطب رضي الله عنه أن وحى السماء يأتي قائدة العظيم في ساعة من ليل أو نهار؟ ، كيف فاته أن تلك الكتيبة المؤمنة المخلصة التي وهبت نفسها لله ، وأوقفت حياتها على نصرة الدين ، وضحت بالمال والأهل والوطن في سبيل الله ، ما كان الله تبارك وتعالى أن يضيعها بخيانه خائن أو بخدعة مخادع . إن من دلائل النبوة القاطعة علم رسول الله ﷺ بتفاصيل تلك الخيانة المزرية وتحديد مكان المرأة التي تحمل جسم الجريمة ، أى امرأة تلك التي تجسر على مثل هذه المهمة الانتحارية إلا أن يكون لها قلب أسد ؟ ، أو يكون حقد لها على الإسلام وكراهيتها للمسلمين ، فوق كل رهبة وخوف ، ويمضى الفرسان الثلاثة حيث أمرهم رسول الله ﷺ ليجدوا المرأة ومعها الكتاب ، الله أكبر .

ثم ماذا بعد ؟ ، ما هو التصرف الطبيعى حيال تلك الخيانة العظمى ؟ ، يأتي رسول الله ﷺ بالكتاب ويمن أرسله ليوقفه في محاكمة عادلة يكفل له فيها حق الدفاع عن نفسه ليذكر دوافعه القهرية للجريمة .

وتبدأ المحاكمة بنداء معاتب حزين ... يا حاطب ، عتاب رقيق غير أنه يكاد يزيب لحم الرجل وعظامه « يا حاطب ، يا من ربيتك على عيني ، وبذلت لك طاقتي وجهدي ، وأخلصت لك نصحي وما كنتمك خيراً قط أعطانيه الله تبارك وتعالى لأنجو بك من الجحيم ، ما حملك على هذا ؟ » كيف فغنت بجند الله ونبي الله ؟ .

ما تلك الدوافع التي اجتاحتك عن قمة إيمانك ، وألقت بك بعيداً بعيداً وراء تخوم الإنسانية فى بئر سحقيق من الخيانة والجاسوسية واللاإنسانية ؟ ما هذا يا صاحب رسول الله ؟ .

إن فى الحلق غصبه ، وفى النفس مرارة ، وفى القلب دعاء أن ينجيك الله تبارك وتعالى من تلك المهلكة .

وجاء دور الرجل فى الدفاع عن نفسه ، وسوق دوافعه على وهنها وعدم

ارتقائها إلى مستوى تبرير تلك الجريمة النكراء .

جاء جواب الرجل منكسراً حزيناً يقطر ألماً وندماً وينم عن صراع نفسى رهيب عاشه الرجل المهاجر المجاهد الذى خلف وراءه فى مكة قرابة ضعفاء فى يد قوية قاسية لم تعرف الرحمة إليها من سبيل .

يا رسول الله لا تعجل عليّ ، إننى كنت امرئاً ملصقاً بقريش ، لم تكن لى جذور فيها تضى على أهلى الحصانة والمنع ، إننى عليهم وافد غريب ، لا كرامة لى عندهم إلا أن أكون على سفاهتهم وضلاسهم ، أما وقد فارقتهم إلى الحق واتبعت النور الذى أنزل معك فإنى وقرابتى أهون عليهم من الذر لن يتورعوا أن يسيموهم سوء العذاب ، لهذا يا رسول الله أردت أن أتخذ عندهم يداً ، فالقوم وإن كانوا على ما هم عليه من الرجس والرزيلة فما زال فيهم بقية من أخلاق أبيهم إبراهيم عليه السلام ، إذ يحفظوا الجميل لمن يسدى إليهم جميلاً .

هذا ما أردت والله أعلم بما أردت ، ويقىنى أن الله ناصر ك ، وأن كتابى هذا لن يضيعك أبداً بحفظ الله ونصره لك .

ساق الرجل مبرراته بصدق وأمانه ، شكى ضعف شكيمته ، وقلة منعه ، وذل غربته ، وهوانه على القوم ، صدق الرجل فى سوق دوافعه ، إنه الخوف على نساء كسيرات لا ناصر لهن ولا معين ، وأطفال ضعفاء لا يقوون على مجابهة سفهاء قريش وحقدهم على الإسلام والحقهم الأذى بمن تحت أيديهم من المسلمين وذويهم ، إنها دوافع ربما تكون لها وجاهتها على المستوى الفردى ، أما أن تؤدى إلى خيانه نبي ورسالة وجيش أمة بأكملها ، فلا

لكن رسول الله ﷺ قد رحم ضعفه وقلة حيلته ، وذكر له هجرته إلى الله ورسوله ، وجهاده فى سبيل الله تبارك وتعالى ونصرة الدين يوم كان المسلمون قلة ، مستضعفه يتخطفهم الناس من كل مكان .

يوم كان الإسلام نبتة ناشئة تعصف بها أنواء الكفر والشرك والعناد فحماء

الله عز وجل بقوة إيمان حاطب وإخوانه ، ونصره الله بجهاد حاطب وإخوانه إذ باعوا أنفسهم ، وضحوا بكل غال وثمين في سبيل نصرة الدين فكانوا هم بدر الإسلام الذى سطع وسط غياهب الكفر والضلال فأشرقت على إثره شمس الإسلام الذى بددت ليل الزور والبهتان ، وأضاءت جنبات الكون ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

اغمد سيفك يا عمر ، فالرجل ليس منافق ولا مرتد ، إن جريمته كبيرة كبيرة لكن عطاءه للإسلام أكبر وأجل ، اغمد سيفك يا عمر ، حسب أنه بدرى قد ترك الأهل والمال والولد وجاء لينضم إلى الركب المطارد المستضعف ، فأعز الله به الإسلام وإخوانه ، أغمد سيفك يا عمر ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فما لأيديكم البيضاء على الإسلام أن تلطخها أى ذنوب ، اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

حسبك هذا يابن أبى بلتعه « فتلسعك رحمة الله » وليسعك حلم رسول الله ﷺ ، وخذ مع هذا العفو ما تقر به عينك ، ويثلج صدرك « وهنيئاً لك يا بدرى أن غفر الله إساءتك وشكر لك سابق صنيعك للإسلام ، إنه الخلق الكريم ، والحلم العظيم » والصدر الرحيب الذى يحتضن الضعفاء المنكسرين ، ويرحم ذلهم ، ويعفو عن زلتهم ، إنه الخلق العظيم الذى استلهمه الرضى نظاماً رائعاً حيث قال :

اعذر أخاك على ذنوبه	واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيف	سه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضيلاً	وكل الظلوم إلى حسيبه
واعلم بأن الحلم عند الغي	ظ أحسن من ركوبه ^(١)

(١) آداب الدنيا والدين .

المبحث الثانى

[لا تثريب عليكم اليوم]

يا خير من ركب المطى ومن مشى فوق التراب إذا تعد الأنفس
صلى الله وسلم وبارك عليك ، يا من تهدى الزهور لمن غرس الشوك فى
طريقك وتبهر الطريق لمن حاول بظلمته الصد عن نورك .

وما من أحد أكثر غرساً للشوك فى طريق رسول الله ﷺ من قرابته الذين
كان يؤمل فيهم النفع ويرجو منهم النصرة والمعونة ، آذوه إذ طمع فى الاحتماء
بهم ، وطاردوه إذ أراد اللجوء إليهم ، حاربوا النور الذى جاء به ، واستمسكوا
بسفاهتهم ، وحالفوا الشيطان عليه ، حاصروه فى الشعب ثلاث سنين هو ومن
اتبعه ، وتعاهدوا على قطيعة الرحم فعذبوهم بالجوع والوحدة ، ثم اجتمعوا
لقتل أكرم خلق الله على الله عز وجل ، فأعمى أبصارهم كما عميت
قلوبهم ، وعصم نبيه الكريم ، فخرج مضطراً من أرضه ودياره ، منبت طفولته ،
ومرتع صباه ، وتألقت شبابه ، أرض ذكرياته وأحلامه ، موطنه الحبيب ، حرم الله
ومهبط الوحي المبارك .

خرج رسول الله ﷺ مطارداً مطلوباً ، ضارباً فى كبد الصحراء يسلمه النهار
إلى الليل ويدفعه الليل إلى النهار ، حتى قدم المدينة المنور فأواه الله ونصره وأيده
بكتائب الإيمان ، فكان الظفر وكان التمكين ، وكانت الغلبة والعزة ، وهاهو
اليوم قد عاد بنصر الله المؤزر وفتح المبين ، عاد إلى أحب أرض الله إلى الله وإلى
رسوله ﷺ .

عادل من نفس الطريق الذى يحكى كل معلم من معالمه مشهداً حزيناً من
قصة الخروج المؤلمة إذ لم يرق للقوم فرارة بنفسه ودينه نذهبوا يقتفوا أثره ضناً

عليه حتى بهذا الخروج فلا حقوه في الصحراء ملاحقه عنيده قاسية حتى رق له الغار فحمله في القلب وأطبق عليه الجفن ، واحتضنه بحنانه ، فأخفاه عن الأعين المحدقة الآثمة ، وأنقذه من قسوة القلوب الصخرية عاد ﷺ ربما يحمل تلك الجراحات الغائرة في قلب القلب ، وتلك الذكريات المؤلمة الحزينة .

فالقسوة بمرارتها وبشاعتها قد تتوقع من بعض الغرباء الذين لا تجرى دماؤهم في عروقك ولا تنشق أنت وهم عن أصل واحد ، أما أن تكون من أقرب الأقربين إليك ، أما أن تكون من الأهل والرحم والعشيرة ، فالجرح إذاً أشد إيلاًماً وأعظم بشاعة وأعمق نفاذاً .

عاد رسول الله ﷺ بعد أن شبت الدعوة فتية ندية ، وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

عاد ظافراً ظاهراً مؤيداً قوياً « فشتان ما بين الخروج والعودة شتان ما بين الأمس المؤلم الحزين ، واليوم المشرق السعيد شتان بين الكفر الأمس شرساً عنيداً وبينه اليوم منكسراً وجلاً ذليلاً ، جاء الصناديد مدحورين مقهورين صاغرين متوقعين جزاء ما اقترفت أيديهم الآثمة .

بالأمس كانوا هم البطاشين الجبارين الظالمين القاهرين « واليوم جاءوا رسول الله ﷺ بؤساء ضعفاء أذلة مقهورين يسألون الصفح ويرجون الرحمة ويخشون سوء العاقبة ، وها هو أبو سفيان بن الحارث وقد كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وأكثرهم تحرشاً به وأعنفهم حرباً عليه « وهو من ؟ ابن عمه وأقرب الناس إليه ، حقيقة تضاعف الألم وتملأ النفس أساً ومراره .

جاء اليوم مؤمناً مطيعاً يطلب الصفح ويناشد الرحم ، التي طالما مزقتها واستخف بصراخها « جاء مستنجداً بمشورة ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ما ينفعني اليوم يا علي عند رسول الله ﷺ « وما معذرتي لديه ؟ ، ويرد

عَلَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَائِقُ مِنْ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

« إِيَّاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ فَقُلْ لَهُ مَا قَالَ أَخُوهُ يُوسُفُ لِيُوسُفَ ﴿ قَالَُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (٩١) ﴿ يُونُسَ ٩١ ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ أَحَدُ أَحْسَنَ مِنْهُ مَقَالًا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَبُو سَفْيَانَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يُونُسَ : ٩٢] (١) .

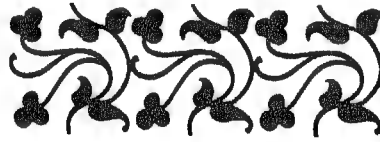
الله أكبر ، لا تتريب عليكم اليوم ، لا تخافوا نقمة الرجل الذي ملكه الله عز وجل رقابكم . لا تخافوا سطوة الرجل الذي استنجد بكم يوماً فكنتم أنتم الرمضاء المحرقة ، لا تخافوا الرجل الذي خذلتموه وأذيتموه ونفرتكم له المرة تلو المرة ، وأغريتكم به سفهاءكم ، إذ أنتم أشد منهم سفاهة وجهلاً ، وهو يحمل إليكم عز الدنيا والآخرة ، رغم أنه الحريص عليكم الباذل جهده لاستنقاذكم حتى عاتبه الله تبارك وتعالى ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ﴿ الشعراء : ٣ ﴾ ، وها قد دارت عليكم الدائرة .

لكنه ﷺ يؤمنكم من فزعكم وقت جئتموه راهبين نادمين ﴿ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمْ ﴾ ، عبارة حانية من قلب رحيم ثم ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ففاضت مشاعر أبو سفيان بن الحارث أبياتاً تقطر حسرة وندماً منها :

لعمرك أني حين أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني هادٍ غير نفسي ودلني	على الله من طردت كل مطرد

(١) زاد المعاد ، أخرجه الحاكم (٤٤، ٤٣/٣) من حديث ابن عباس وسنده جيد وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطردٍ !! وهنا تتدافع الأفكار ، وتتزاحم المعاني ، وتعجز العبارة ، ويتراجع القلم إجلالاً وتعظيماً لذلك الموقف المهيّب ، تاركاً فكر القارئ الكريم ليسبح في عالم فسيح جليل مادته حلم رسول الله ﷺ ، وأثيره تلك الروحانية الرفيعة الذي تملأ جوانب النفس وتملك على القلب شغافه .



المبحث الثالث

[اللهم طهر قلبه]

هكذا كان رسول الله ﷺ واسع الحلم ، جميل الصبر ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويتألف النفوس ، ويتودد القلوب ، « قد وصفه الله تعالى في التوراة من قبل أن يبعثه ، فقال : محمد رسول الله عبدى المختار لافظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجرى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح » (١) .

يتجاوز عن إساءة المسيء ، ويحلم على الجاهلين ، ويحتضن العصاة الشاردين ، ليغسل عنهم أدران المعصية ويستأصل بريقها الزائف من قلوبهم بنور الحق وجمال اليقين ، والقصة التى بين أيدينا الآن تبين مدى حرص رسول الله ﷺ على كل فرد فى الأمة وضنه به على الشيطان « وبذل قصارى جهده فى استنقاذه من برائن المعصية والسير به قدما فى طريق النور المبين .

« أتى شاب إلى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ، فصاح الناس به ، فقال النبى ﷺ : قربه ، إذن ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال له النبى ﷺ : « أحبه لأملك ؟ قال الشاب : لا » جعلنى الله فداك ، قال النبى : كذلك الناس لا تحبه لأماتهم ، أحبه لابتك ؟ ، قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ، فقال النبى : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أحبه لأختك ؟ حتى ذكر العمة والخاله وهو يقول فى كل مرة : لا جعلنى الله فداك ، والنبى ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه .

ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر الشاب وقال : « اللهم طهر قلبه »

واغفر ذنبه ، وحصن فرجه ، فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا ^(١) .

إن الشهوة قد ركبت فى الطبيعة البشرية تركيباً رئيساً مهمته ! استمرارية الحياة والحفاظ عليها ، فشهوة البطن تعمل على حفظ الإنسان من التلف ، وشهوة الفرج تعمل على حفظ النوع وعمارة الأرض ، وشهوة المال تحث على السعى والعمل والدأب ، وهكذا قد جعل الله سبحانه وتعالى الشهوة فى الإنسان سبباً من أسباب استمرار الحياة غير أن الله تبارك وتعالى قد قننها للإنسان ، وجعل نفعها فى الاعتدال بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وجعل لها المصارف الشرعية النظيفة التى تبقى على الإنسان إنسانيته ، وترتفع به عن الدنيا وتحفظه من السقوط وجعل لها ضوابط ومحاذير .

فقد حرم الامتناع عن الأكل والشرب حتى الموت وعده إتلافاً للنفس يعاقب عليه الله سبحانه وتعالى أشد العقاب كما حذر من الإفراط ونهى عنه فقال عز من قائل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقال نبيه الكريم ﷺ : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » ^(٢) .

كما أمر تعالى بطيب المأكول والمشرب حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، وحذر رسول الله ﷺ من أكل الحرام وبين سوء عاقبته فقال : « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » ^(٣) .

(١) الإحياء (٢/٢٩٣) ، قال محقق الإحياء ، رواه أحمد بإسناد جيد ، رجاله رجال الصحيح .

(٢) الترمذى .

(٣) صحيح الجامع .

أما شهوة المال فقد دل الله سبحانه وتعالى الإنسان على موارد الرزق الحلال وحذر وأغلظ العقوبة على التعدي والظلم والعدوان في تحصيله فقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٨) ﴿ [البقرة : ١٨٨] .

وقد أمر الله تعالى بالصدقة في المال الحلال وفرض الزكاة لتطهيره من ناحيه ، ولتحقيق الرحمة الإنسانية والكفالة الاجتماعية من ناحية أخرى فقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٣) ﴿ [التوبة : ١٠٣] .

أما شهوة الفرج وهي أغلظ الشهوات فقد أحاطها الشرع الحنيف بالمحاذير وبين الطرق الشرعية النظيفة لإشباع تلك الطاقة الطبيعية ، بل وجعلها عبادة وقرية إلى الله تبارك وتعالى حين يراد بها الإحصان والعفاف والولد الصالح كما قال رسول الله ﷺ : « ... وفي بضع أحدكم صدقة » ، قالوا : يا رسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » ^(١)

ونهى الشارع الحكيم عن كبت تلك الطاقات والأضرار بها ، وكره التبتل والرهينة كما جعل لذوى الطاقات الخاصة سعة في تعدد الزوجات لتظل الحياة طاهرة نظيفة ثم غلظ العقوبة الدنيوية والأخروية الجسدية منها والنفسية على التعدي والانحراف فقال عز من قائل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ [النور : ٢] ، وهذا حد الزنا للأبكار من الرجال والنساء ، أما المحصن فالخطب أعظم والعقوبة أشد وأردع إذ أنها الرجم حتى الموت .

عن جابر أن رجلاً من أسلم جاء النبي ﷺ فاعترف بالزنا ، فأعرض عنه النبي ﷺ حتى شهد على نفسه أربع مرات ، قال له النبي ﷺ : « أبلك جنون ؟ قال لا ، قال أحصنت ، قال : نعم ، فأمر به فرجم بالمصلى فلما أذلقته الحجارة فر فأدرك فرجم حتى مات » ^(١) .

ذلك أن الزنا هتك للحرمان ، واختلاط للأنساب ، وتدنيس للمجتمع وإباحية قذرة مقيتة وسقوط بالإنسان إلى ما دون البهيمة بدركات ، والفطر السليمة والقلوب المؤمنة النظيفة تأبى الإغراق فى الشهوة المباحة ، كما تنفر من الرزيلة وتأبى إلا الطرق الشرعية النظيفة الراقية لإشباع تلك الشهوات .

أما المرضى بسعار الشهوة فللرذيلة فى قلوبهم بريق أى بريق ذلك أن إبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين يلقي عليها هالة من مادته النارية المتقدمة فيتدافعون إلى ذلك البريق الشيطاني تدافع الفراش إلى النار فتتشبب فيهم الشهوة نشوب النار فى الهشيم فتخلفهم جسداً قذراً لا روح فيه ولا حياة .

يقول صاحب التذكرة - رحمه الله - :

« الأعمى عن التقوى الذى أخذت سمعه وبصره الشهوات يراها ولا يرى النار التى هى فيها وإن كانت باستيلاء الجهالة ورين الغفلة على قلبه كالطائر يرى الحبة فى داخل الفخ وهى محجوبة عنه ولا يرى الفخ لغلبة شهوة الحبة على قلبه وتعلق باله بها وجهله بما جعلت فيه وحجبت » ^(٢) .

^(١) صحيح البخارى ، باب الرجم بالمصلى كتاب الحدود

^(٢) التذكرة

هكذا يصورها الشيطان اللعين لفريق من الشهرانيين بينما صورها لفريق آخر نهر من الرى وسط صحراء حيوانتهم المتعطشة دائماً فيلهشون بإثرها وإذ بها ﴿ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

عافاني الله وسائر المؤمنين من سخطه وسوء عقابه ، ولأن المعصية مذلة ونقيصة مزريه ، فإن معظم العصاة يحاولون جاهدين حجب نقائصهم ومخازيهم عن الناس عامة وعن الصالحين بوجه أخص لما للصالحين من الرهبة والإجلال والتقدير وهؤلاء أرجى لعفو الله عز وجل وأبقى لطهارة المجتمع من أن تشيع فيه الفاحشة ، إذ يقول رسول الله ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرون ، وإن من المجانه أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١) .

إن المجاهرين بمعاصيهم ، المتفاخرين بدناياهم ، أبعد من رحمة الله عز وجل لجراتهم عليه وهتك ستره عليهم فما بال هذا الشاب الذى رضى بالله رباً والإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، ما باله يصر على كبيرة من أخطر الكبائر وأقبحها على النفس البشرية ، ليس هذا وحسب وإنما قد تمكنت منه غاية التممكن حتى أشربها قلبه ، فلا يستحى أن يجاهر بها ولا يتورع عن محاولة الحصول على الإقرار بها ، ليس من كبير عشيرة ، ولا من صالح قوم ، إنما من رسول الله ﷺ وعلى ملا من صحابته الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين . أى جرأة هذه ؟ ، وأى انتكاسة ، نأت بالرجل عن ضوابط الضمير

(١) صحيح البخارى ، باب ستر المؤمن على نفسه .

الإنساني « وهوت به إلى تلك البهيمة المنحطة ؟ .

كيف يتأتى لإنسان الجمع بين طهارة الإيمان ونجاسة الزنا وجريمة الإصرار عليه ، يقول ابن القيم - رحمه الله - : « نجاسة الزنا واللواط أغلظ من غيرها بين النجاسات من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جداً ، ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر » ^(١) .

إن الرجل مريض بداء الشهوة القبيح ، وقد تمكن العطب منه أيما تمكين واستحوز عليه أيما استحواز « حتى طلب من الحارس الأمين على محارم الله ﷺ أن يقره على استباحة تلك المحارم ! ، وصاح الناس به استقذاراً لفحشه واستنكاراً لجرائئه على رسول الله ﷺ ، ولكن رسول الله ﷺ أدرك أنه أمام مخلوق منتكس الفطرة لا تنفعه الذكرى ولا تجدى معه الموعظة ، فعدل إلى ما هو أنجح في العلاج ، فقال : قربوه « اتركوه لى فأنا أولى به منكم ، بل أولى به من نفسه ، ثم وجه الخطاب إلى مريضه فقال : « ادن » كلمة فيها من الود والحنو « ما يسكن هلع الرجل ويروض نفسه المستوحشه .

وهنا بدأ العلاج ، أخذ رسول الله ﷺ تستحث فيه نخوة العربى وغيرته على نسائه وتضحيته بالنفس والثفيس فى سبيل الزود عن حمى محارمه « فقال ﷺ : « أحببه لأملك ؟ » سؤال بمثابة الصعق الكهربائى الذى يعالجون به العقول المغيبة رجاء إفاقتها ، بالطبع لا يارسول الله « جعلنى الله فداك .

كيف لأمى أن تكون ... ١؟ ، وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أحببه لا بنتك ؟ أحببه لأختك ، أحببه لعمتك ؟ ، أحببه لخالتك ؟ ، ومضات-سريعة

(١) إغالة اللهفان .

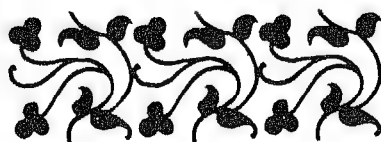
ومركزة وقوية التأثير تعيد للعقل المغيّب إدراكه وتوازّه ، تجلو الرّان عن القلب المصّفى بظلمة المعصية « فتتهاوى أغلاله غل إثر غل ، حتى يتحرّر من تلك الأغلال بنور الحق وفيض الإيمان .

وهكذا ظلّ رسول الله ﷺ يعرض الصورة جزءاً جزءاً على عقل الرجل وقلبه ونخوته ، فيستبشع أن تكون أمه أو ابنته أو أخته أو هي التي باعت دنياها وآخرتها ، وشرف أهلها بثمن بخس - لحظات من المتعة الزائفة القذرة الدنيئة « تذهب لذنها ويبقى عارها أبدي الدهر - ثم يطرق رسول الله ﷺ الحديد ساخناً فيقول : كذلك الناس لا يحبونه لأمانتهم ، لبناتهم ، لأخواتهم

هكذا أخذ رسول الله ﷺ يخلخل انحراف الشهوة في الرجل ويطفئ بريقها الكاذب في قلبه حتى بدت تلك الفعلة في حسه قبيحة مقرّزة منفره ، وهنا أصبح القلب المستفيق معداً لاستقبال الطهر والعفاف ، فوضع رسول الله ﷺ يده المباركة على صدر الشاب ودعا له بطهارة القلب ومغفرة الذنب وإحصان الفرج « فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا ، إنها بركة الإخلاص في الدعوة ، والحرص على استنقاذ الناس من بين أنياب الشيطان ومخالبه « حتى وإن أحكم وثاقه حول أعناقهم ، واختيار أنجح الوسائل والتقدير الجيد لكل موقف « والبحث لكل إنسان عما يصلحه والله درء القائل :

فوضع الندي في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع النداء



الفصل الثالث جلمه ﷺ بالنساء

- المبحث الأول : غارت أمكم .
- المبحث الثاني : وجعل يتغير وجهه .
- المبحث الثالث : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر .
- المبحث الرابع : فيسلم ثم يقول : كيف تكم .
- المبحث الخامس : هن حولي كما ترى يسألني النفقة .
- المبحث السادس : فأمر أبا أ، أن يجهزها .

المبحث الأول [غارت أمكم]

روعوه فتولى مفضبا أعلمتم كيف ترتاع الظبا ؟
خلقت لاهية ، ناعمة ربما روعها مر الصبا !^(١)

فيثارة هي المرأة ، رقيقه جد رقيقه ، تداعب أوتار قلبها الكلمة الدافئة وتنشج وجدانها البسمة الحانية من زوج محب عطوف ، فإذا بها تعزف أرق نغمات الإخلاص والحب والمودة والطاعة ، وتشد أوتارها الكلمة القاسية ، والمعاملة الفظة ، فتصدر نشازاً صاخباً يحطم في طريقه كل هادئ وجميل ، وغالباً يستبشع الرجل رد الفعل العنيف متجاهلاً دائماً الأسباب التي أدت إلى تلك الردود غير المرغوبة ، متناسياً وصف الله تبارك وتعالى للمرأة بالبرقة والنعموة والشاعرية وقلة الإحتمال ، وشراسة ردود الأفعال في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٨] .

أما رسول الله ﷺ فلم يكن ليتجاهل الأسباب التي تثير غضب المرأة ، وتشعل غيظها ، ولهذا فإنه ﷺ لم يكن ليثيرها ابتداءً ، فإن أثيرت على غير رغبة منه ، عالجها بحكمته وحلمه الحاني ، ورويته ، وهاهو ﷺ عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، الزوجة المحبة الهادئة الودود الرزينة القانعة بنصيبتها من رسول الله ﷺ ، السعيدة به كل السعادة .

وبينما هي هادئة النفس هائثة الفؤاد إذ تهب عليها ريح عاصف تقتلع

(١) ديوان شوقي .

الهدوء والسكينة من نفسها إقتلاعاً « وتضرم النار فى قلبها الأخضر فتحيل
نغماتها الرقيقة الهادئة صخباً يحطم كل شىء فى طريقه ، ترى ما الذى فعل
بالصديقة بنت الصديق كل هذا فأخرجها من سكنتها وإتزانها ودفع بها إلى
الثورة العارمة ؟ .

اصغى السمع إذاً لأنس ربه ﷺ إذ يقص الخبر فيقول : « كان النبى ﷺ عند
بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام « فضربت التى
النبى ﷺ فى بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع النبى ﷺ فلق
الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول : غارت
أمكم « ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها فدفع
الصحفة الصحيحة إلى التى كسرت صحفتها وأمسك المكسورة فى بيت التى
كسرت » (١) .

إنها الغيرة إذاً قد أتت بالريح العاصف ، أرسلت إحدى زوجات رسول الله
ﷺ إلى رسول الله ﷺ طعاماً عند عائشة رضى الله عنها ربما بمشاعر الإيثار «
والرغبة عن الإستئثار بطيب الطعام دون رسول الله ﷺ .

مشاعر رقيقة محمودة ، لولا أنها أتت فى غير موضعها ، فأساءت إلى
مشاعر عائشة رضى الله عنها « وقطعت عليها سعادتها بخلوص رسول الله ﷺ
لها فى ذلك اليوم ، وكان ذلك هو الفتيل الذى أدى انتزاعه إلى تفجر نيران
الغيرة ، التى أكلت فى طريقها كل رغبة للهدوء وضبط النفس وكظم الغيظ «
وامتدت يد الإحتجاج والثورة إلى القصعة فكسرتها ، حطمت عائشة رضى الله
عنها القصعة - رمز التعدى - فكان إنذاراً عملياً لكل من تسول لها نفسها

ويغريها قلبها بالانقرباب من رسول الله ﷺ في غير يومها ، أو يراودها الأمل أن تكون الغائبة الحاضرة ، كسرت القصعة ، وانكسرت معها حدة الغضب ، وعاد الهدوء ثانية إلى البيت .

كان يمكن أن تتغير النتائج لو قوبلت ثورة الزوجة بثورة مضادة من الزوج كان يمكن أن يحدث هذا لولا أن صاحب الموقف هو رسول الله ﷺ الرؤوف الرحيم « الذي تأخذ عنه الأمة شرعتها ومنهاجها » .

ضم رسول الله ﷺ القصعة وجعل فيها الطعام « وظل ممسكاً بها في حسن أدب ، وجميل تواضع حتى انتهى القوم من الطعام » وهو يعتذر عن الموقف لجلسائه بقوله : « غارت أمكم » ثم ماذا ، انتهى الموقف بالنسبة لعائشة رضي الله عنها بعد أن ترك في نفسها - بلا شك - أثراً عميقاً جعلها تعاهد نفسها على عدم تكراره لكن الموقف لم ينته - بعد - بالنسبة لأم المؤمنين صاحبة الصفحة المكسورة .

إن رسول الله ﷺ قد تجاوز عن حقه ، لكنه لا يمكنه التجاوز عن حق غيره « لهذا فقد حبس الصفحة المكسورة ، وأرسل صفحه عائشة رضي الله عنها بدلاً منها على قاعدة « من أفسد شيئاً فعليه إصلاحه » .

منتهى الحلم على من كسرت الصفحة « ومنتهى العدل لمن انكسرت صحفتها - رضي الله عنها - وانتهى الموقف « لكن ظلاله لم « ولن تنتهي أبداً من ذاكرة التاريخ ، ولن تبهت روعتها في قلوب الأمة ، إذ أرسلها رسول الله ﷺ رسالة خالدة ، تعلم الرجال كيف يقابلون بركان الثورة عند الزوجة المحبة المؤمنة بفيض من الحب « ومزيد من الصفح والغفران « ويعلم النساء ضرورة ضبط النفس « ومحاولة الهدوء واتزان الانفعال « فتعود للبيت سكينة وسعادته ، فلعلنا نقتدى بصاحب الخلق العظيم ﷺ .

المبحث الثانى

[وجعل يتغير وجهه]

مرة أخرى مع عائشة رضى الله عنها ، تلك المدرسة الرائعة ، التى تعلمت الأمة من خلالها منهج رسول الله ﷺ لبناء الإنسان الكامل ، والبيت الناجح . واجتمع الراقى ، وهاهى تعلمنا موقف آخر من مواقف الحلم الراشد لرسول الله ﷺ حيث تقول : « حشوت للنبي ﷺ وسادة فيها تماثيل كأنها نمرة » فجاء فقام بين البابين وجعل يتغير وجهه ، فقلت ما لنا يا رسول الله ؟ قال : ما بال هذه الوسادة ، قالت : وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها . قال : أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ، وأن من صنع الصور يعذب بها يوم القيامة ، يقول : أحيوا ما صنعتم ^(١) .

بمشاعر الزوجة المحبة الحانية . صنعت عائشة رضى الله عنها وسادة لرسول الله ﷺ ليتكى عليها فتمنحه قسطاً من راحة البدن . وجعلت غطاءها منقوشاً بالصور ، لتمنحه قسطاً من راحة النفس ، وبهجة خاطر ، وهكذا ظنت عائشة رضى الله عنها ، وترقبت عائشة عودة رسول الله ﷺ لتدخل السرور على نفسه بتلك المفاجأة الجميلة .

ووقعت الوسادة من نفس رسول الله ﷺ موقعاً غير الذى تمنته عائشة رضى الله عنها ، وإذ بوجهه الكريم يتغير وترسم عليه أمارات الغضب وتشتد ، وإذا كان الغضب قد انطبع على وجهه الشريف بتلك الصورة الشديدة فلا بد وأن يكون فى قلبه أعتى وأشد .

(١) البخارى ، باب إذا قال أحدكم أمين ، والملائكة فى السماء أمين ، كتاب بدء الخلق .

وارتابت عائشة رضى الله عنها وانطلق سؤالها الحائر الوجمل المحبط ، ما لنا يارسول الله ؟ ، أى شىء قد أصابك بهذا الضيق الشديد ؟ ، فديتك نفسى يارسول الله ، يا لها من روعة حقيقية ، زوج لم تخرجه مشاعر الغضب عن الانضباط والحلم والروية ، وزوجه لم تخرجها مشاعر الإحباط من الاستياء من صنيعها الذى أملت فيه القبول والاستحسان ، عن الطاعة والرجوع للحق وتصحيح الخطأ إن كان ثم خطأ .

ما لنا يارسول الله ! ، هل أسأت من حيث أردت الإحسان ؟ ، ما لنا يارسول الله ، وتستهل الإجابة بسؤال هادئ حكيم « ما بال تلك الوسادة » ؟ ، المشكلة إذأ فى الوسادة التى صنعت لتمنح رسول الله ﷺ شىئاً من الراحة والاسترخاء ، ويسفر رسول الله ﷺ عن سبب غضبته العاقلة المتزنه .

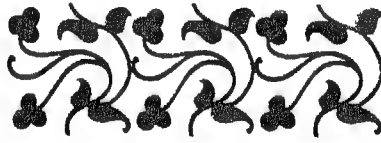
أما علمت ياعائشة ؟ يال الحلم العظيم ، والرفق الرحيم ، كأنما هى طفلة الرقيقة . يعلمها بأسلوبه الحانى « يعاتبها بسؤاله العطوف ، أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة ؟ .

ولم تنته مهمة رسول الله ﷺ عند مجرد إبلاغ الحكم الشرعى فقط ، بل احترم عقلية الزوجة الحبيبة ، فساق لها حيثيات الحكم كى تؤمن بها إيمانها بالحكم نفسه « إن من صنع الصورة يعذب بها يوم القيامة » ، لماذا يارسول الله ؟ يقال لهم أحيوا ما خلقتكم .

ليست القضية إذأ مجرد صورة للتجمل والزينة ، إنما هى قضية لها أبعاد شرعية تطلبت من رسول الله ﷺ الشرح والتعليل « غاية الحلم وذروة الرفق رغم المخالفة الشرعية فى مهبط جبريل ﷺ » ومع ذلك لم يتعنّت ، ولم يستأسد ، ولم يقبح أو يوبخ رغم غضبته الشديدة ، إنما أنكر وترفق ، فبلغ الاستنكار محله « وأتى ثماره الطيبة » فتعلمت عائشة حكماً شرعياً جديداً ، وتعلمت

الأمّة معها كيف تقول « سمعنا وأطعنا » ، وتعلم الدعاة كيف يكون الإصلاح ، وكيف يتحقق حين يبدأ كل بنفسه ، ويبدأ كل داعية أولاً من بيته ، وكيف يترفق في معالجة الأخطاء فهل نتعلم ؟ .

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال : « لا تغضب ، فردد مراراً » قال : لا تغضب ^(١) .



(١) البخارى ، باب الحذر من الغضب ، كتاب الأدب .

المبحث الثالث

[ماهي بأول بركتكم يا آل أبي بكر]

« من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور العين شاء » ^(١)

إن بهر رسول الله ﷺ فياض بالخير أبداً لا يغيض ، بهر لا يزيدك الإبحار فيه إلا علماً و يقيناً وأدباً عالياً رفيعاً ، تسبح فيه روحك فإذا بها بورانية شفافة قد عادت سيرتها الأولى ويتنسّمه قلبك فينتعش ما ذبل فيه من الإيمان ويتجدد ما خبا فيه من اليقين

ويغوض فيه عقلك فإذا به يستخرج لآلى من العلم لا تزداد مع الأيام إلا نفاسة وبريقاً يذيب سحائب الضباب التى تحجب روح الحقائق عن عيون القلوب ، وها هى عائشة رضى الله عنها تغوص بنا فى بحر حلمه العذب سندسبيل فتقبر

« خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء وبدات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله ﷺ على التماسه وقام الناس معه وليسوا على ماء فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا ألا ترى إلى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى قد نام ، فقالت حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء » فقالت عائشة فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، جعل يطعننى بيده فى خاصرتى فلا يمنعنى من

التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي ، فقام رسول الله ﷺ حيث أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فيتمموا فقال أسيد بن حضير ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر قالت « فبعثنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحتة » (١) .

إن رسول الله وهو في ذروة الانشغال الذهني كقائد يفكر ويخطط وبينه النتائج على الأسباب مستعيناً برب الأسباب ، وهو في هذه الأوقات العصبية « فإنه أيضاً في أرفع مراتب الإنسانية وأرقى آفاق المشاعر إذ يرضى زوجاته الطاهرات ويحترم مشاعرهن ويرحم قلوبهن « فيقرع بينهن ليصطحب معه من تسعدها الأقدار منهن بصحبته المباركة الطيبة والسعادة كل السعادة كانت لعائشة رضى الله عنها تلك المرة .

وأى سعادة فوق سعادتها بصحبة رسول الله ﷺ في حله وترحاله « ويمضى الركب المجاهد على بركة الله عز وجل تحذوه صوب الهدف الأسمى عيون النهار اليقظة النشطة ، وتضمنه للراحة والاسترخاء أهداب الليل الحانية وتوقظه لمواصلة المسير خيوط الفجر الوليد ، وهكذا يقطع الركب المبارك الليل والنهار مابين الحل والترحال ، وصولاً إلى الهدف الأسمى للقيام بأمانة التبليغ « وينهض الجيش بعد نوبة راحة واسترخاء ، ليكمل المسير لكن شيئاً ما يعرقل هذا المسير المبارك ، عقد عائشة ! .

عقد يعرقل مسيرة جيش قائده أعظم نبي وجنوده أعظم بشر بعد الأنبياء ؟ جيش ابتعثه الله عز وجل لاقتلاع جذور الكفر من الأرض وغرس رياض الإيمان واليقين فيها ، ثم أين أقام الجيش لأجل هذا العقد ؟ .

فى صحراء محرقة ، فى بقعة من الأرض لا يرق لها قلب ، ولا تندى لها عين وليس مع القوم ماء ، المكث القصير هنا معناه جفاف الحلق ، وإضاعة الصلاة ، إذ لا صلاة بدون وضوء والمكث الطويل معناه إضاعة الحياة ، إذ الماء فى الصحراء هو الحياة ، ثم ما قيمة عقد يقعد جيشاً وفى تلك الظروف القاسية ؟! ترى ، هل هو من النفاسة بمكان ؟ .

وأنى لعائشة أن تلبس نفيس الحلى ؟ وهى التى لا توقد نار بيتها على طعام ما بين ثلاثة أهله فى شهرين متتابعين أن هو إلا التمر والماء ، وأنى لرسول الله ﷺ أن يلبس زوجه نفيس الحلى ؟ وهو الذى لا يبقى لنفسه ولا لأهل بيته من حظ الدنيا إلا أدنى ما يقيم الأود ويحفظ عليهم الحياة .

أسئلة عديدة وملحة تدافعت إلى ذهنى وذهنك كما تدافعت إلى ذهن جنود الرحمن وسرعان ما انحدرت من الذهن الذى أجهدته إلى اللسان شكاية مريرة لأبى بكر الصديق رضي الله عنه « ألا ترى إلى ما فعلت عائشة » .

سؤال فيه من الإنكسار والاستنجاد بقدر ما فيه من الاحتجاج والتذمر شكاية أخرجت الصديق وأثارت حفيظته على ابنته عائشة رضى الله عنها ويأتى أبو بكر رضي الله عنه بثورته العارمة ليجد رسول الله ﷺ فى غاية السكينة والطمأنينة إلى قدر الله عز وجل واضعاً رأسه الشريف على فخذ عائشة رضى الله عنها قد نام

يا له من منظر ملؤه الروعة والجمال ، منظر فيه من فيض المشاعر ما تعجز عنه بلاغة الأدباء . وتنضب دونه قرائح الشعراء غير أن روعة معانيه تسرى فى خلایا المدركين لمعنى المودة والرحمة ، وعبير السكن فى حياة الزوجين المتحابين فى الله عز وجل ، فتزيدهم إدراكاً لجمال تلك المعانى الرائعة . وتسرى فى قلوب المحرومين المتعطشين إلى تلك الحياة الهائلة السعيدة فتزيدهم

تعطشاً وأمانى ، كما تسرى نحو القلوب الصلبة القاسية فلا تجد إليها سبيلاً ،
وكفى بهذا الحرمان لها عقاباً

جاء أبو بكر رضي الله عنه بكل هذا الغضب - وهو الحليم الأسيف - فعاتب عائشة رضى الله عنها مر العتاب وأخذ يطعنها بيده طعنات كانت أقسى على نفسها من طعن السيوف فهي لم تعتد القسوة منه إذ هو دائماً نبع الحب وفيض الحنان ولهذا قالت : « فعاتبنى أبو بكر ولم تقل أبى لأن قضية الأبوة الحنو ، وما وقع من العتاب بالقول والتأنيب بالفعل مغاير لذلك فى الظاهر فلذلك أنزلته منزلة الأجنبي فلم تقل أبى » (١) .

تصارعت مشاعر الحزن والمرارة فى قلب عائشة لكنها لم تغير من جلستها ، إيثاراً لراحة رسول الله ﷺ ، قاست مرارة العتاب ، وقسوة العقاب ، فى صمت وصبر بالغين ، حرصاً على ألا تقطع على رسول الله ﷺ نومته المستقره الهائلة . ولم لا ؟ وهو الزوج الحليم الحانى ، الذى لم يسفه أحلامها ولم يحطم مشاعرها ، ولم ينكر عليها حبها للزينة والتجمل ، ولم يحطم آمالها فى العثور على هذا العقد إنما نام هادئ النفس مطمئن الفؤاد .

لم يقمه العقد فى هذه الصحراء إذاً إنما أقامه حسن عشرته لأهله .
وجميل مودته وفيض رحمته بهم . فغمرها بفيض حبه ، ووسعها برائع حملة ﷺ .

وكان حين أصبح على غير ماء ، أن أنزل الله تبارك وتعالى آية التيمم ، فكانت مخرجاً للجمع من حرجهم وضيقهم ، ويسراً للأمة من بعدهم . وتأكيذاً لبركة الطاهرة المطهرة - عائشة رضى الله عنها - لتظل لها مكرمة على

مر الزمان « يعرفها لها الأولون والآخرون ، من أمة سيد المرسلين ﷺ ، ثم أرسلوا
بغيرها فوجدوا العقد تحته « فجمع لها الخير كله ، وكان هذا إيداناً باستئناف
المسير

المبحث الرابع

[فيسلم ثم يقول ، كيف تيكلم ؟]

يا ملكا تعبدا مُصَلِّياً مُرَوِّحاً
مباركا في يومه والأمس ، ميمونا غدا^(١)

يالك من مباركة ياعائشة ، كنت دائما لعظام الأمور ، وهل يكون لها إلا
أولوا العزم من البشر ؟

لكن الخطب تلك المرة عظيم جد عظيم ، فوق احتمال القلب ، فوق
حدود العقل ، يفلق الكبد ، ويبدد أجمل ما في الحياة

الأمر تلك المرة لا يلتذ به إلا القلوب النجسه ، ولا تلوكة إلا الألسنة السامة
المفرضة ، ولا تسمعه إلا الآذان المريضة الآثمة ، ذلك هو حديث الإفك على
من بولى كبره من الله ما يستحق ، إذ كان هدفه الأول بهذا السم الزعاف
تقويض الدعوة والقضاء عليها في شخص أكرم خلق الله على الله تبارك وتعالى ،
وهو رسول الله ﷺ جاهلاً أن الله تبارك وتعالى لا يترك حياة أوليائه لعبث
العابثين ، ولا لضلال المفرضين الضالين .

والحديث طويل طويل ، وما أشد قسوته على النفوس المؤمنة والقلوب
المخلصة ، وما أقسى بشاعته على الضمير الإنساني المنصف ، وما أكثر بركته
على الأمة ، إذ أرسى لها قواعد أخلاقية ، وس لها قوانين شرعية وأحاطها
بضوابط نفسية وحواجز أمنية . تحفظ لها سلامة كيائها ، وتبقى على ثقتها

بنفسها ، وتغلب مشاعر الخير وحسن الظن لديها .

كل هذا قد اكتسبته الأمة من المحنة القاسية ، التي تعرض لها بيت النبوة الطاهر الكريم ، حين أصابه السفهاء بأحجارهم المغرضة الدنيئة ، فأهدى إلينا الخير كله ، وهل تلقى بالحجارة إلا الشجرة المثمرة ؟ .

ونقتطف من الحديث ما يلقي الضوء على سعة حلم رسول الله ﷺ إزاء عائشة رضى الله عنها في ذلك الموقف العصيب ، قالت عائشة : « فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يرينى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى حين أشتكى ، إنما يدخل عليّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ، ثم ينصرف فذلك يرينى » ^(١) .

إشتكت عائشة رضى الله عنها شهراً كاملاً ، كان بالنسبة لها رحمة من الله تبارك وتعالى رغم معاناة المرض إلا أنه قد حجب عنها الفرية الحقيرة ، التى ربما أودت بحياتها - لو عرفتها من البداية - وهى التى تصف نفسها فى ليلة أو ليلتين قاست فيهما جحيم تلك المصيبة قبل نزول براءتها من فوق سبع سموات فتقول : « وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم حتى أنى لأظن أن البكاء فالق كبدى » ^(٢) .

شهر من المارة والعذاب والألم الذى يفوق احتماله البشر ، قد كلف أظهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب فى تاريخها الطويل ، ها هو ذا ﷺ يرمى فى كل شيء حين يرمى فى عائشة رضى الله عنها .

(١) البخارى باب ، تعديل النساء بعضهن بعضاً ، كتاب الشهادات .

(٢) المصدر السابق

يرمى في فراشه وعرضه وقلبه ورسالته « يرمى في كل ما يعتز به عربى » وكل ما يعتز به نبى « ها هو ذا يرمى في هذا كله ، ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً ، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً ، والله يريد لحكمة يراها ، أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً » لا يبين فيه بياناً ، ومحمد الإنسان يعانى ما يعانى الإنسان فى هذا الموقف الأليم ، يعانى من العار ، ويعانى فجيعة القلب ، ويعانى فوق ذلك الوحشة المؤرقة ، الوحشة من نور الله الذى اعتاد أن ينير له الطريق ، والشك يعمل فى قلبه - مع وجود القرائن على براءة أهله - ولكنه لا يطمئن نهائياً إلى هذه القرائن « والفرية تفوح فى المدينة ، وقلبه الإنسانى المحب لزوجته الصغيرة يتعذب بالشك ، فلا يملك أن يطرد الشك ، لأنه فى النهاية بشر ، ينفع فى هذا انفعالات البشر ، وزوج لا يطيق أن يُمسَ فراشه » ورجل تتضخم بذرة الشك فى قلبه متى استقرت « يصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم » (١) .

ترى ... ماذا يمكن أن يفعل رسول الله ﷺ ؟ ، وهو قد عاش عذابات فوق عذابات كل البشر « ذلك أنه أعلى البشر قدراً ، وأرفعهم مكانة ، وأغبرهم على حرمان الله ، وأحرصهم على حرمان الإنسان ؟ » كيف وحرمة هى التى قد نيل منها ؟ .

بأبى وأبى ما أَلَمَ بك من الأحزان يا حبيبى يا رسول الله .

عائشة الطاهرة المبرأة من فوق سبع سماوات قد حبسها المرض فى البيت ، لا تعلم من أمر الإفك شيئاً ولم تسمع بالسموم التى نفثتها الألسنة السامة « ولم تدر بالنيران التى اضرمتها القلوب الخبيثة فى القلب الطاهر المبارك ، قلب رسول الله ﷺ » إنما يريها أنها لا تجد منه اللطف الذى تعودته فى مرضها ، إنه

(١) فى ضلال القرآن .

يدخل فيسلم ثم يقول « كيف تيكم ، فقط ، تعتبر ذلك جفاء منه ﷺ لها .
 لك الله يا عائشة ! إن من النساء من تعتبر نفسها قد نالت من السعادة
 منتهاها إذا تعطف عليها زوجها يوماً ، فسأل عن صحتها ، أو حاول الإطمئنان
 عليها ، إذ تعتبر ذلك منه ألطف اللطف وألين اللين » ذلك أن هذا بالنسبة لها
 أملاً بعيد المنال ، حيث اعتادت منه الجفاء والغلظة ، وهي ليست المتهمة
 عنده ، وهو ليس الجريح النازف .

أما هذا من رسول الله ﷺ الرؤوف الرحيم فقد اعتبرته زوجه رضى الله عنها
 جفاء وقسوة ، لما اعتادت منه من حسن المعشر وطيب المعاملة « زوج جريح قد
 طعن في أعز ما يملك ، وتعرضت دعوته للإنهار » وتعرضت مبادئه للتقويض
 في مجتمع قد جمع من الأنفة والكبرياء والغيبره على المحارم ما جعله يردد ليل
 نهار :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم ^(١)
 في مجتمع كان يمد البنات مخافة العار إلى عهد قريب كما قال قائلهم
 عن ابنته :

تهوى بقائى وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم ^(٢)
 ومع هذا كله يدخل بين الفينة والفينة وهو الجريح الغائر الجرح - ليطمئن
 على زوجه المريضة والتي كانت وراء تلك الآلام والأحزان « لكنه الحليم الصابر
 المحتسب الراجي من الله سبحانه وتعالى المخرج والنجاة شيئاً فشيئاً يتسع الجرح
 ويتدفق النزف ويشتد الألم وتزداد الحيرة ، وتضيق الدنيا ، ويلتبس الوحى »

(١) المتنبي .

(٢) اسحق بن خلف عن كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها .

فيأتى رسول الله ﷺ عائشة رضى الله عنها ليحسم الموقف ويضع حداً لتلك الآلام الرهيبة المتفتقة عن أذن تسمع ، وعقل ينكر وقلب حائر ما بين العقل والأذن .

يأتى رسول الله ﷺ عائشة ينشد عندها بصيصاً من نور « فتشهد ثم قال : يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه » (١)

ما أبشعها من مصيبة قد أصابت أكرم خلق الله على الله عز وجل ، كما أصابت قلب عائشة رضى الله عنها فى مقتل ، خاصة حين استشعرت الشك من رسول الله ﷺ

أن يفترى الساقطون المغرضون المنافقون على بيت النبوة المعصوم من الدنس ، فتلك مصيبة أى مصيبة ، أما أن يشك رسول الله ﷺ فتلك مصيبة المصائب ، وقاسمة الظهر ، وزهول ما له من إفاقة .

قلص دمع عائشة رضى الله عنها بيد أن نزيف قلبها قد انسكب كلمات أحر من الجمر « فقالت : « لقد سمعتم الحديث حتى استقر فى أنفسكم » وصدقتم به « فلكن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني ، وإن اعترفت لكم بأمر » والله يعلم أنني منه بريئة لتصديقى ، فوالله لا أجد لكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] (٢) .

ويشتد الكرب على البيت الطاهر ، ويعنف الإبتلاء على المسلمين ، وتشتد الظلمة فكانت « الآلام التى عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته والجماعة المسلمة

(١) حديث الإفاك « البخارى » ، تعديل النساء بعضهن بعضاً .

(٢) المصدر السابق

كلها ثمن التجربة وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء» ^(١) .

لكن أحلك ساعات الليل « هي التي ينبثق منها شعاع الفجر ، وانبثق فجر الخلاص ، وأشرقت شمس الحقيقة ، وتنزل رحمت أرحم الراحمين ببراءة الطاهرة المظهرة الصديقة بنت الصديق ، الأمانة على عرض رسول الله ﷺ ، انخلصة فوق كل إخلاص ، نزلت البراءة منحة سماوية من رب العالمين ، وتنزل بها جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين ، فأى كرامة تلك يا ابنة الصديق ؟ »
« فسرى عن رسول الله وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : يا عائشة ، أما الله فقد برك ، قالت : فقالت لى أمى : قومى إليه » فقلت : والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل » ^(٢) .

كانت القرية فى الأرض شهراً ، لكن البراءة كانت من فوق سبع سماوات يقرآن يتلى إلى يوم الدين ورددتها السنة مغرصة آثمه فى بعض طرقات المدينة ، لكن البراءة رددتها السنة ذاكرة وقلوب طاهرة أينما طلعت الشمس أو غربت قرآناً يتعبد به أهل الأرض ، ويترنم به أهل السماء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] .

فمن الخن تأنى المنح ، وعلى قدر المحنة تكون المنحة .

هكذا قد عالج رسول الله ﷺ الأمر بحكمة بالغه ، وحلم واسع ، رغم آلامه المبرحة وحزنه الرهيب ، وهكذا علّم الأمة كيف تكبح بالحلم الغضب ، وكيف يبجم العقل الحمية ، وكيف يسبق التثبت العقاب وكيف يقدم حسن الظن

(١) فى ظلال القرآن .

(٢) حديث الإفك ، رواه البخارى .

على سوء المظنة .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) [النور : ١٢] .

فكم من أنفـس أزهقت وكم من بيوت هدمت ، وكم من أعراض لوثت ، وكم من عزة سحقـت ، وكم من عار طارد ظلماً الأبرياء الشرفاء كل ذلك بسم الألسن القاتلة ، وحقد القلوب الحاسدة ، واستسارت الغضب الأعمى والحمية الطائشة .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - :

« لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومئذ وخاضها الإسلام ، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ ، وخرج منها منتصراً كاظماً آلامه الكبار محتفظاً بوقار نفسه ، وعظمة قلبه ، وجميل صبره فلم يؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاذ صبره وضعف احتماله ، وآلام التي تناوشته لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته » (١) .

صلى الله عليه وسلم وبارك يا حبيبى يا رسول الله ، نفديك بكل غـال ونفيس ونردد مع حسان بن ثابت رضي الله عنه كلماته المخلصة الرقيقة .

فإن أبى ووالده وعرض لعرض محمد منكم وقاء (٢)

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ

(١) فى ظلال القرآن .

(٢) ديوان حسان بن ثابت .

اللَّهُ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكُكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

[النور : ١٢ - ١٨] .



المبحث الخامس

[هـن حولي كما تري يسألنني النفقة]

وشد من سغب أحشاء وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
 وراودته الجبال الشُّمُّ من ذهب عن نفسه فأراها أيما شم
 وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدوا على العصم^(١)
 صلى الله عليك وسلم وبارك يا حبيبى يا رسول الله ، كم كاد لك
 الحاسدون ، وكم اعترض طريقك الجهلاء الحاقدون ، وكم ناوءك المعاندون ،
 وكم تأمر عليك المتآمرون ، وقد ردهم الله تعالى مخذولين مدحورين «
 ورد كيدهم فى نحورهم ، فانقلبوا - بنعمة الله على نبيه - خاسرين ، فماذا لو
 كانت المؤامرة تلك المرة من داخل البيوت الطاهرة ، وأبطالها هن أمهات
 المؤمنين أنفسهن - عليهن رضوان الله ورحمته - ، ماذا لو كانت ضربة من
 حيث مأمن ، والثورة قد انطلقت من الجبهة الداخلية ، المنوط بها توفير الهدوء
 فى البيت النبوى والعمل على راحة رسول الله ﷺ ومحاولة التخفيف من وطأة
 الأعباء الملقاه على عاتقه .

القصة حزينة لكنها رائعة المعانى سامية الدلالات ، عطرة الأنسام نقتطف
 منها ومضات رائعة ، وكلها رائعة .

« فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فدخل فوجد النبى
 ﷺ جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا ، قال : فقال : لأقولن شيئا أضحك النبى
 ﷺ فقال : يا رسول الله « لو رأيت بنت خارجة (زوجة عمر) سألتنى النفقة

(١) الإمام البوصيرى برقم (١٧٤٨) .

فَقَمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَّأتْ عَنْقَهَا ، فَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ : هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى
يَسْأَلُنَنِي النَّفَقَةَ فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عَنْقَهَا ، فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ
عَنْقَهَا كِلَاهُمَا يَقُولُ : تَسْأَلُنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَقُلْنَا : وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً لَيْسَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ اعْتَزَلْنَهُنَّ شَهْراً أَوْ تِسْعاً وَعِشْرِينَ ^(١) .

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ فِي أَسْمَى دَرَجَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الرَّاقِيَةِ ، قَدْ حَازَ الْكَمَالَ
الْإِنْسَانِي فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهِ لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِالْمُتَكَبِّرِ ، وَلَا بِالْفُظِّ الْمُسْتَبَدِّ وَلَمْ يَكُنْ
لِيَصَادِرَ الْحَرِيَّاتِ ، وَيَكْبِتَ الرِّغْبَاتِ ، وَهِيَ هِيَ ﷺ مَعَ أَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ
الْفَاضِلَاتِ تَرَاجَعَهُ إِحْدَاهُنَّ وَتَغَاضِبُهُ إِلَى اللَّيْلِ فَلَا يَضْرِبُ وَلَا يَقْبَحُ ، إِنَّمَا يَصْبِرُ
وَيَحْلُمُ وَيَتَرَفَّقُ بِهِنَّ وَيَتَوَدَّدُ لَهُنَّ حَتَّى يَرْضَيْنَ .

أَمَّا الْمَرَاجَعَةُ تِلْكَ الْمَرَّةَ فَكَانَتْ فَوْقَ احْتِمَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، حَيْثُ طَالِبْنَهُ
بِالسَّعَةِ فِي النَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَكُنِ الْمَطْلَبُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مُتَجَاوِزاً حَدَّ الْإِعْتِدَالِ
فَهُنَّ الزَّاهِدَاتُ التَّقِيَّاتُ الرَّاغِبَاتُ بِنَصِيْبِهِنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّابِرَاتُ عَلَى
شُظْفِ الْعَيْشِ الْقَانِعَاتُ بِحَدِّ الْكَفَافِ أَوْ بِمَا دُونَهُ ، لَا تَرْتَدُّ فِي أَبْيَاتِهِنَّ النَّارَ مَا بَيْنَ
ثَلَاثَةِ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ وَلَا يَجِدْنَ ذَوْاقاً فِيهَا يَتَّقُوْنَهُ إِلَّا التَّمْرَ وَالْمَاءَ .

أَمَّا الْمَوْقِفُ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْآنَ ، فَلَا ضَيْرَ أَنْ تَطَالِبَ أُمَهَّاتُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِحُجُوحَةٍ
مِنْ الْعَيْشِ وَلَوْ بِالْقَدْرِ الْقَلِيلِ ، « فَنَسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ كُنَّ نِسَاءً مِنَ الْبَشَرِ لَهُنَّ
مِشَاعِرُ الْبَشَرِ ، وَعَلَى فَضْلِهِنَّ وَكِرَامَتِهِنَّ وَقُرْبِهِنَّ مِنْ بِنَابِيعِ النُّبُوَّةِ الْكَرِيمَةِ ، فَإِنْ
الرَّغْبَةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي مَتَاعِ الْحَيَاةِ حَيَةً فِي نَفُوسِهِمْ ، فَلَمَّا أَنَّ رَأْيَنَ السَّعَةَ وَالرِّخَاءَ
بَعْدَ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ رَاجِعِينَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي أَمْرِ النَّفَقَةِ فَلَمْ
يَسْتَقْبَلْ هَذِهِ الْمَرَاجَعَةَ بِالْتَّرْحِيْبِ ، بَلْ اسْتَقْبَلَهَا بِالْأَسَى وَعَدَمِ الرِّضَا إِذْ كَانَتْ
نَفْسُهُ ﷺ تَرْغَبُ أَنْ تَعِيشَ فِيمَا اخْتَارَهُ لَهَا مِنْ طَلَاقَةٍ وَارْتِفَاعٍ وَرِضَى مُتَجَرِّدَةٍ

من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامى الوضئ المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوباشها ، لا بوصفه حلال وحرام فقد تبين الحلال والحرام ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة ^(١) .

ورغم ما ترك هذا المطلب فى نفس رسول الله ﷺ من المرارة والألم وما ترك فى نفسه الشريفة من الموجدة على زوجاته الفضليات إلا أنه لم يؤذيهن ولم يعنفهن ، بل لم « يقبل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة ، فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية تصفى وترفع ولكنها لا تخمد ولا تكبت » ^(٢) ، لهذا قد ألمم رسول الله ﷺ جراحاته وطوى أساء واختلى بنفسه شهراً بعيداً عن الأهل والصحب والأزواج ، حتى تهدأ نفسه ، ويندمل جرحه ، فلا تؤذيهن شدة غضبه ، ولا تكسرن حدة ثورته ، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا عن فترة الاعتزال هذه فيقول :

« فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير ، فجلست فأدنى عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه ، فنظرت ببصرى فى خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرطاً فى ناحية الغرفة ، وإذا أفيق معلق قال : فابتدرت عينائى قال : « ما ييكيك يا ابن الخطاب ؟ ، قالت : يا نبي الله ! وما لى لا أبكى ؟ وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى » ، وذاك قيصر وكسرى فى الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته ، وهذه خزانتك فقال : « يا بن الخطاب ! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ ، قلت : بلا » ^(٣) .

(١) فى ضلال القرآن .

(٢) فى ظلال القرآن .

(٣) من حديث الإبلاء ، صحيح مسلم والبخارى ، باب (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) ، كتاب تفسير القرآن واللفظ لمسلم .

المسألة إذاً هي إظهار الآخرة ونعيمها ونعيم الدنيا بجانبه إنما هو متعة ساعة تفنى وتبقى تبعثها ، كان اعتزال رسول الله ﷺ لنسائه درساً قاسياً على نفوسهن وعقاباً رادعاً لثورتهم ، إذ في بعده عنهن عذاب أى عذاب ، ولغضبته في نفوسهن مرارة أى مرارة ، لكنه عقاب مهذب لا يخدش الكرامة الإنسانية ولا يهين الطبيعة البشرية ، وتنتهى فترة الإعتزال ويعود رسول الله ﷺ إلى أبياته الشريفة .

لكن القضية لم تنته بعد إذ لا يرضى الله عز وجل لرسوله ﷺ أن يمضى الأمر هكذا ولا أن يتعرض نبيه الكريم لهذا الموقف مرة أخرى فينزل الله تبارك وتعالى آية التخيير لتضع حداً حاسماً لتلك القضية .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب ٢٨-٢٩] .

أى جريمة اقترفتها الأمهات القانتات العابدات فاغضبت عليهن رسول الله ﷺ تلك الغضبة الشديدة وأغضبت الله تبارك وتعالى لغضبة نبيه ؟ لأجل طلبهن أن يوسع عليهم رسول الله ﷺ بعض الشيء في النفقة وهو الذى يعطى الناس عطاء من لا يخشى الفقر ؟ .

أذلك مطلب جائر وقد عشن من قبل سنوات وسنوات دون حد الكفاف راضيات محتسبات وقت كان رسول الله ﷺ لا يقدر على غير هذا ؟ ، إن هذا مطلب طبيعى وعادل لزوجات صبرن على ضيق ذات يد أزواجهن حتى فتح الله عليهم ووسع أرزاقهم .

نعم هو هكذا بالنسبة لأى زوجات ، أما زوجات رسول الله ﷺ

فالأمر مختلف إذ تسير القضية على قاعدة حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ذلك أنهم « أمهات المؤمنين ولهذه الأمومة تكاليفها ، وللمرتبة السامية التي استحققن بها هذه الصفة تكاليفها ، ولكانتهن من رسول الله ﷺ تكاليفها » (١) .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٣٢) وَقُرْنِ فِي بَيْوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٣٣) [الأحزاب ٣٢-٣٣] .

ولهذا جر هذا المطلب البسيط المتاح كل هذا البلاء عليهن ووجدن أنفسهن في مفترق صعب واختيار حتمي بين نعيم الدنيا وبين نعيم القرب من الله ورسوله ﷺ .

ويبدأ رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها وتلك فطنة النبوة وإشراقة القلب المحب « ويخيرها بمنتهى الحرية بلا ضغوط ولا قهر ولا إرهاب ، إنها حرية الاختيار بين المتعة والسراح الجميل في أدنى الخيارين وعظيم الأجر وجزيل المثوبة في أعلاهما ، إنه القرآن الكريم خلق سيد المرسلين .

إنه الحلم الرائع في أخرج المواقف وأقساها على قلبه ﷺ ويستمهل رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها في الجواب حتى تستأمر أبويها ليقينه أنهما لن يؤثرتا على رسول الله الدنيا وإن حيزت لعائشة من أطرافها وذلك حرصاً من رسول الله ﷺ على عائشة وضنا بها على غير المكانة الأسمى .

(١) في ظلال القرآن .

وتختار عائشة رضا الله عنها بحصافتها وتقائها وحبها لله ولرسوله خير الخيارين تختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم تلمح عائشة في أفق الموقف أمل الإنفراد برسول الله ﷺ فتسأله بقلب الزوجة المحبة الغيور الضنينه بزوجهها على امرأة غيرها ألا يخبر أحداً من زوجاته باختيارها عليهن ألا يوفقن في الاختيار فيلخص لها رسول الله ﷺ وحدها ، لكن الرحمة المهداة والسراج المنير ﷺ يبين لها أن القضية أبعد من غيره امرأة أو أثرها إنما هو خيار دنيوى يتوقف عليه مستقبلهن الآخروى .

« فبدأ بعائشة فقال : يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك امرأة أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وما هو يارسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ ، بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نساءك بالذى قلت : قال : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يعش معتنا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى ميسراً » ^(١) .

يال الأخلاق المحمدية الراقية ، يخبرهن - إن سألنه - باختيار عائشة لعلهن يتأسين بها ، ولهن بعد ذلك حرية الاختيار المطلق ، بالرحمة الزوج إذ يعين زوجه على حسن الاختيار .

وما كان لأمهات المؤمنين اللاتى تربين فى بيت النبوة ، واغترفن من أخلاق النبوة ، وأحببن رسول الله ﷺ حباً دونه كل حب أن تخترن غير الله ورسوله فارتقين المرتقى الذى أراده لهن الله ورسوله « كل ذلك برحمة الله تبارك وتعالى بهن ، وحلم رسول الله ﷺ عليهن .

الدنيا وخافو الفتنا إن لله عبادة فطناً طلقوا

المبحث الثالث

[فامر أبا أسيد أن يجهزها]

كان هذا هو أرقى درجات الحب وأعلى درجات الحرص من رسول الله ﷺ على زوجاته الطاهرات رضى الله عنهن اللأئى غمرهن بفيض رحمته ، وجميل عشرته ومودته واحترام مشاعرهن فحفظها عليهن شفيفة طاهرة . بل عمل على رقتها وسموها فنقاها من كل شائبة . وخلصها من كل أثرة . وطوف بها فى عالم الإيثار النورانى السامى الذى لا يصله إلا من خلص قلبه ونفسه لله تعالى ، فكن نساءً فوق مراتب عظماء الرجال .

وها هو ﷺ يتزوج بأخرى ليخلق بها فى سماء مجد بيت النبوة حيث يرفعها إلى مرتقى لا يصله إلا الخيرات المختارات غير أن ما حدث كان أبعد من استيعاب العقل وأغرب من شطحات كل خيال .

« أبو أسيد قال : تزوج النبى ﷺ أميمة بنت شراحيل فلما دخلت عليه بسط يده إليها فكأنما كرهت ذلك فامر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين » ^(١) .

امرأة نكدة غير موفقه ، أراد رسول الله ﷺ أن يسمو بها إلى أرقى مرتقى . لكنها أخلدت إلى الأرض واتبعت هوى طينيتها المظلمة الثقيلة ، فلم تستجب لنور النبوة الفياض ، إذ أراد لها التحرر من قيود الأرض وانحطاط الطين إلى آفاق الروح الرحب ، فى مقام يجاور مقام النبوة السامى يتزوجها رسول الله ﷺ لا لتصبح ملكة تاجها اللؤلؤ وعرشها الياقوت وملكها أرض شاسعة فى عصر

(١) صحيح البخارى ، باب من طلق وهو يراجه الرجل امرأته بالطلاق ، كتاب الطلاق .

مديد - وهذا والله وإن كثر في عيون الخلق فهو عرض من الدنيا قليل قليل - وإنما لتكون أماً للمؤمنين ، تاجها اقترانها برسول الله ﷺ وعرشها قلوب المؤمنين الصادقين وملكها حيث طلعت الشمس أو غربت إلى يوم الدين ، ثم الكرامة العظمى مرافقته ﷺ في الجنة ، في أرفع المقامات وأعلى الدرجات حيث الخلود والنعيم المقيم ، إذ أزواجه في الدنيا هن أزواجه ﷺ في الآخرة ، لكنها استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير ، إذ بسط إليها رسول الله ﷺ - حين دخلت عليه - يده المباركة بكل خير ، بسعادة الدنيا والآخرة ، بالسمو والرفعة والشرف والمكانة التي لا تتبوها امرأة إلا أن تكون زوجاً لأكرم خلق الله على الله ، لكنها كأنما كرهت ذلك ، إذ أبت عليها ظلمتها الكثيفة أن تشف وترتقي ، فازدادت التصاقاً بالأرض ، وازداد تشبثها بالطين ، فلما رأى منها رسول الله ﷺ ذلك ، وهو المتعفف السامي المترفع عن كل ما لا يليق بمقام النبوة الطاهر الكريم ، احترم رغبتها ولم يستعمل حقه الشرعى كزوج قوام تجب له الطاعة وحق الولاء .

ولم يثار لكرامته كرجل تترفع عليه من هي في مقام دون مقامه بما لا يحصى من الدرجات ، وإنما تركها لاختيارها بشموخ الأبي الأنف ، فسرحتها رسول الله ﷺ سراحاً جميلاً ، وأمر أبا أسيد رضي الله عنه - بأخلاق النبوة الراقية - أن يجهزها كي ترحل إلى أهلها ، وأن يكسوها ثوبين رازقين .

أى حلم هذا ؟ ، وأية أخلاق تلك التي تهدى الورد إلى من يرميها بالشوك وأن تمتد بالفضل والخير إلى اليد التي حملت إليها الإساءة العاشمة ؟ .

إنها أخلاق النبوة العطرة ، أخلاق محمد رسول الله ﷺ .

الفصل الرابع حلمه ﷺ على الأطفال

- المبحث الأول : أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة .
- المبحث الثاني : فما زالت تلك طعمتى بعد .
- المبحث الثالث : فذهبت ألعب بخاتم النبوة .

المبحث الأول

[أما شهرته أنا لا تأكل الصدقة]

ما أرق النبتة الوليدة ، يلثم خدها النسيم الحالم ، وتلاعبها الفراشات
للعوب ، ما أروع براءتها ، وهي لاهية ضاحكة ملئ فم الصباح الآمل ،
النافض عن عينيه ثقله النوم وتأوؤب الأهداب .

ما ألد ضعفها ، حين تختبئ تحت جناح الشجر اليفاع من قسوة الهجير أو
لطمه الريح العاتية ، ما أجمل طموحها ، وهي تجاهد ضعفها لتطاول باسقات
النخل وهي القرية العهد برحم الأرض ، ومشيمة الأقدار .

إنها الطفولة الرائعة المعنى ، الرائقة السطح ، الشفيفة الأعماق ، المتسلطة
الرغبة ، القرية الرضا والثورة ، المتقلبه فى دفء الحنان وانطلاقه المرح .
وعصف الغضب ، وتدليل الترضى .

المستسلمة أخيراً لهدأة النوم ، واستعداداً ليوم جديد حافل بالحياة « ووسط
تلك السلاسة الرائعة ، قد يطرأ على العود الغض الندى بعض ما يعرقل
استقامته « فلربما استقطبته الشمس فانحنى شرقاً ، أو صارعته الريح فانحنى
غرباً ، وهنا وجب الحسم والتقويم « حتى لا تغتال البراءة فى مهدها ، ولا يشوه
الجمال فى أوج صفائه .

وينفع الأدب الأحداث فى صغر
إن الفصون إذا قومتها اعتدلت
وليس ينفع عند الشيبة الأدب
ولن تلين إذا قومتها الخشب

لابد إذا من الحزم الواعى المقنن والتقويم الرفيق العنانى « ذلك أن التفاضل
الدائم عن الإعوجاج يميع القضايا ويفقد الناشئ الإنسان بالفهم شيئاً لا يجد
ضرورة لرقى السلوك .

وتسوية التقويم يجعله بعد مستحيلاً ، ليس العود وتأصيل الإعوجاج فيه
أما التقويم العنيف فربما يكسر العود الغض ، أو يكسبه إعوجاجاً أشد في الاتجاه
المغاير ، وفي كل فساد الطبع وتشويه المطبوع ، لهذا فالتقويم المتواصل المقترن
بالرفق والوعى ، يصلح بلا شك الإعوجاج الطارئ ويدعم الاستقامة فينضج
العود وتطيب الثمرة . ذلك ما أرساه رسول الله ﷺ في تربية النشأ ، وما تتطلبه
من مرونة تناسب أطوار حياتهم المختلفة ومشاكلهم المتجددة المتباعدة وما يلزمها
من حزم رفيق وحلم ذكي ، لتصحيح ما يطرأ على السلوك من خطأ وما يطرأ
على التفكير من انحراف أو ما ينتج عن قلة العلم أو عدم تقدير العواقب ، ابن
زياد سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : أخذ الحسين بن علي تمر من تمر الصدقة
فجعلها في فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « كخ كخ ليطحرها ، أما شعرت أنا لا
نأكل الصدقة » ^(١) .

الصدقة قد حرمت على رسول الله ﷺ وأهل بيته الطيبين الأطهار إعظماً
وتكريماً لهم ذلك أن الصدقة طهور لمال المتصدق ، تغسل ما يعلق بماله من
أدران الشبهة وتطهرها مما قد يختلط به من مال حرام ، لهذا فقد رفع الله
سبحانه وتعالى رسوله الكريم فوق تلك الصدقة هو وأهل بيته الطيبين « الحسن
رضي الله عنه كان بعد طفل صغير لا يدرك من تلك المعاني شيئاً ، إنما وجد تمر ،
فاشتهتها نفسه الصافية البريئة ، وامتدت يده الصغيرة الرقيقة لتلبى نداء نفسه .
طفل صغير لا يدرك معنى الحلال والحرام ، ولا يدرك كنه الصدقة « ولم
يصل بعد سن التكليف .

وكثيراً ما يتجاوز البعض منا في قضية الحرام والحلال بالنسبة للأطفال

(١) البخاري ومسلم واللفظ للبخاري ، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ .

بحجة أن الطفل بعد لم يصل سن التكليف فلا مانع من كذبة ترفع عنه حرج موقف ما ، ولا مانع من اغتصاب لعبة طفل آخر لإشباع رغبته ، ولا مانع من لكمة عنيده على وجه الأب أو الأم من يده الصغيرة ، لتهدأ نائرتة ومثل ذلك كثيراً مما لا يحسب البعض عواقبه ، تهاوناً وظناً أن لا ضرر من ورائه بيد أنه يخطئ خطوط رئيسية في شخصية الطفل ونفسيته ، ويشوه مفهوم القيم والأخلاق لديه .

لم يتهاون رسول الله ﷺ ، ولم يشفق على الطفل - وهو لم يدخل بعد دائرة التكليف - أن اشتتت نفسه تلك الثمرة ، بل الشفقة كل الشفقة أن يحافظ الرسول الكريم ، على تلك النبتة الغضة ، طاهرة نقية ، لهذا فقد أسرع ﷺ بنهي الطفل نهياً حاسماً ، لكن بلغة طفولية رفيقة حانية . بعيداً عن التشنج والعصبية والقسوة « كخ كخ ، ارم بها » منهج رائع لتقويم الإعوجاج في سلوك الأطفال وتصحيح الخطأ في تصرفاتهم .

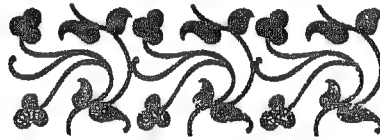
ولم يقف رسول الله ﷺ عند حد النهي عن الخطأ ، إنما احترام عقلية الطفل فناقشه أسباب النهي .

أما علمت أن لا نأكل الصدقة ؟ ، مناقشة هادئة مقنعة في حوار دافئ يعترف بإنسانية الطفل ويحترم حقه في المعرفة وضرورة الإقناع .

إن فقد الحوار بين الآباء والأبناء لهو من أسباب الشقاق والعقوق ذلك أن الأب يرى دائماً أوامره بدهيات يجب التسليم بها من قبل الأبناء « بيد أن الابن يحس أنه له حق المناقشة والحوار ، وله عقل من حقه القبول أو الرفض .

وبين تعنت الآباء وإصرار الأبناء - كل على موقفه - تنشأ الفجوة ، ثم تتسع الهوة شيئاً فشيئاً ، ويحدث ما يسمى بصراع الأجيال ، وهو في الحقيقة ليس بسبب اختلاف الأجيال ، إنما هو فقد الحوار وعدم التواصل الفكرى »

وعدم الإئتلاف الروحي من بداية التنشئة ، هكذا تعامل رسول الله ﷺ مع الموقف ، وهكذا أنشأ حواراً علمياً وجدانياً بينه وبين الطفل ، علمه من خلاله أن هناك محظورات يجب الوقوف عندها ، وليدربه على أعمال العقل ، وينشئه على احترام الذات والرجولة المبكرة .



المبحث الثانى فما زالت تلك طعمتى بعد

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجاً ولكن يعوده التسدين أقربوه
أيمكن لطفل تمتهن مشاعره وتهمل ذاتيته وتحتقر إنسانيته أن يكلف بعد
بمهام الرجال ؟ « كيف ؟ وطفل اليوم هو صبي الغد ورجل بعد غد .
إنها الحقائق التربوية التى يجهلها البعض ، ويتجاهلها البعض ويكسل عنها
كثير من يؤمنون بها إيمان نظرية لا إيمان تطبيق .

أما رسول الله ﷺ فما كان منهجه المبارك قابل للإنقسام بين نظرية وتطبيق
إنما كان المنهج الواقعى التربوى الأسمى فى واقعيته من المثال ، والصورة التى
بين أيدينا الآن ملمح رائع من حرص رسول الله ﷺ على الأطفال والرقى بهم
وتهذيب سلوكهم فى حنو بالغ وحلم واسع .

« عمر بن أبى سلمة يقول : كنت غلاماً فى حجر رسول الله ﷺ وكانت
يدى تطيش فى الصحيفة فقال لى رسول الله ﷺ : « يا غلام ، سم الله ، وكل
يمينك » وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتى بعد » (١)

أبو سلمة رضي الله عنه هو من لا يخفى على مسلم سبقه فى الإسلام . وهجرته
فراراً بدينه ، ومكابدته فراق الزوج والولد ، حتى جمع الله بينهم ، صحابى
جليل يقدم نفسه طيبة راضية فداء للإسلام . ونصرة للدين وتعلم أم سلمة
رضى الله عنها باستشهاد زوجها الحبيب ، فتصبر وتحتسب ، ويلهج قلبها

(١) صحيح البخارى ، باب الأكل مما يليه ، كتاب الأطعمة .

ولسانها بدعاء المصيبة ، امثالاً لأمر رسول الله ﷺ .

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها .
قالت : لما مات أبو سلمة قالت : أى المسلمين خير من أبى سلمة ؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قتلها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ ^(١) .

امثلت أم سلمة رضي الله عنها لأمر الله ورسوله ولم يدر بخلدها أن رحمة الله تبارك وتعالى قد اختارت لها أفضل خلق الله قاطبة خلفاً لأبى سلمة على الأهل والولد ، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [٦٩] النساء : ٦٩ ، إنه رسول الله ﷺ إنه الرحمة المهداة والنور الهادى والخلق العظيم ، وارتقى رسول الله ﷺ بأم سلمة رضي الله عنها من مؤمنة في عداد المؤمنين إلى أم للمؤمنين ، وهكذا أصبح عمر الطفل الصغير اليتيم الكسير وقد أسعدته الأقدار فأوته إلى حجر رسول الله ﷺ ليدفنه من صقيع اليتيم ويحميه من ذل الحاجة وشبح الضياع .

ما أسعدك يا ابن أبى سلمة بيتك ، وما أوفر نصيبك من الخير ، فلم يكن طفل يتمه خير وبركة عليه كما كان عليك ، حجر رسول الله ﷺ وما أدفاه من حجر ، وحضن رسول الله ﷺ وما أحنه من حضن ، ورعاية رسول الله ﷺ وما أرشدها من رعاية .

وها هو الطفل الذى أدركته غناية الله تبارك وتعالى ، يصبح ربيب البيت

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة .

المحمدى ، يستنشق عبير الأخلاق الحمديه « ويرتوى سلسبيل الآداب المحمدية ،
ويغتذى ببركة المائدة المحمدية .

ها هو يجلس على المائدة فى جو أسرى رائع ، يفتدى جسمه بأكثر الطعام
يسراً وبركة ، وتغتذى رورحه بفيض الإيمان وأصدقه ، وتغتذى مشاعره بأروع
الحنان وأدفاه ، ويغتذى عقله بأجل العلم وأقدسه وتغتذى أخلاقه بآداب من
أدبه ربه فأحسن أدبه ﷺ .

الطفل يأكل بطريقته الطفولية العشوائية ، تمتد يده حيث شاءت وتنتزع
من الصحفة ما أرادت ، وتغدوا فى الطعام بلا انضباط وتروح وتطيش حيث لا
عقل يقودها ، ولا أدب يكفها ، وهنا يتدخل الأب الحانى ، والمعلم الفياض ،
المؤدب المهذب ، يا غلام « يا صغيرى الذى عما قريب تطرق أبواب الرجولة
لتنظم فى منظومة المجتمع الرفيع الأدب الراقى السلوك .

فكما أن لكل شىء فى الإسلام آداب وأخلاق « كذلك الطعام وأول آداب
الطعام أن تسم الله الرزاق الوهاب « شاكراً لنعمته واجتلاباً لبركته ، ثم تأكل
بيمينك لتحقيق خصوصية المسلم ويزداد الطعام يمناً وبركه ثم تأكل مما يليك
لترداد عفة وقناعة وترفعاً .

ما أروع الآداب المحمدية الراقية ، وما أرفع نفساً تربت عليها وتهذبت بها «
ويشب الطفل المحاط بالعناية الإلهية والتربية النبوية رجلاً تقى القلب ، عفيف
النفس « مهذب السلوك « يروى عن رسول الله ﷺ أدبه الرفيع « وحلمه الرائع «
وحنانه الفياض ، ليعلم الآباء معنى الأبوة الحقه ، ويعلم من يخلف الآباء
الراجلين على أبنائهم كيف تكون الرأفة والرحمة « وكيف تكون تقوى الله
تبارك وتعالى فيمن استخلفوا عليهم « وصلى الله وسلم وبارك على معلم
البشرية الخير إلى يوم الدين .

المبحث الثالث [فذهبت ألعب بخاتم النبوة]

كان رسول الله ﷺ ليتيم حجره خير أب وخير مهذب ، وحير مشيد لمعالى النفس ورفعة السلوك ، فى حنو فياض وعطف عاقل وحلم رائع . كذلك كان رسول الله ﷺ لكل أطفال المسلمين وذلك إرساء لقواعد التربية السليمة وترجمة لروح الشرع الحنيف .

« عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت : أتيت رسول الله ﷺ مع أبى وعليّ قميص أصفر ، قال رسول الله ﷺ : سنه سنه . قال عبد الله (أحد رواة الحديث) وهى بالحبشة حسنة ، قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزبرنى أبى ، قال رسول الله ﷺ : دعها ، ثم قال رسول الله ﷺ أبلى واخلفى ثم أبلى واخلفى ثم أبلى واخلف » ^(١) .

يا لروعة العقل الذى يحترم حب الإستطلاع لدى الأطفال ويعمل على تنمية ملكة البحث عن الحقائق ومحاولة تفسير الظواهر المختلفة .

يا لروعة الأبوة الحانية التى تحتضن الطفولة بالحب الفياض وتبذل لها بالإيثار الحبيب وتسعها بالحلم الواسع ، وتتعهدها بالرعاية الآمنة ، الأبوة الصادقة ، كما عبر عنها ذلك الأب الحانى الرقيق الذى انقلبت سعادته بأبنائه المأى ومرارة لفراقهم فتساءل قائلاً ،

أين الضجيج العذب والشغب أين التدارس شابه اللعب
أين الطفولة فى توقدها أين الدمى فى الأرض والكتب

(١) صحيح البخارى ، باب من تكلم بالفارسية أو الرطانة ، كتاب الجهاد والسير .

أين التشاكس دونما غرض
أين التباكي والتضاحك في
أين التسابق في مجاورتي
يتزاحمون على مجالستي
أين التشاكي ما له سبب
وقت معاً والحزن والطرب
شغفا إذا أكلوا وإن شربوا
والقرب مني حيثما انقلبوا^(١)

هذه هي الأبوة الحققة التي هي حق خالص للطفولة وأى تقصير فيها يعتبر تعدياً على حقوق الأبناء ، وأى تجاهل أو إنكار لها يعتبر جريمة بشعة ليس في حق الأطفال فحسب ، وإنما في حق المجتمع الذي سيعانى من جيل من المشوهين نفسياً وخلقيهم ضحايا إساءة الآباء أو تخليهم .

لذا كان لابد للأبوة من وعى كامل بطبيعة البنوة ومقتضياتها والداعمية المربى الذى يربى المجتمع ويتعهد عقائده وسلوكياته أب على وجه الحقيقة - وإن لم يكن بالنسب - لكل فرد فى المجتمع ، والطفل أولى بتلك الأبوة إذ هو أرض خصيبة تجيد إنبات كل ما يلقى فيها من خير أو شر .

« ومن القواعد التربوية المجمع عليها لدى علماء الاجتماع والنفس والتربية تقوية الصلة ما بين المربى والولد ليتم التفاعل التربوى على أحسن وجه ويكتمل التكوين العملى والنفس والخلقى على أنبل معنى ، ومن المؤكد لدى أصحاب العقول النيرة أنه إذا كان ثمة جفوة ما بين الولد والمربى أو ما بين الطالب والأستاذ فلا يمكن أن يتم تعليم أو تتحقق تربية » لذا وجب على الآباء والمربين أن يحشوا عن الوسائل الإيجابية فى تحبيب الأولاد بهم « وتقوية الصلة بينهم وإيجاد التعاون معهم ، واستشعار الشفقة عليهم »^(٢) .

(١) عمر بهاء الأميرى عن كتاب ، تربية الأولاد فى الإسلام .

(٢) تربية الأولاد فى الإسلام .

وهذه الوسائل التي أجهده الباحثون أنفسهم على مر العصور وفي مختلف الحضارات في التوصل إلى بعضها ما هي إلا بعض من منهج كامل للتربية « أرسى قواعد رسول الله ﷺ وكان أحد مفرداته هذا الحلم الرائع الذي احتضن به أطفال الأمة جميعاً من خلال احتضانه لأطفال صحابته اكرام رضى الله عنهم .

وها هي أم خالد بنت خالد طفلة صغيرة كانت لها السعادة كل السعادة أن تترعرع في بستان رسول الله ﷺ زهرة ندية رقيقة الجمال ، تأتي رسول الله ﷺ مع أبيها فيهش ويش لها ويطرى على ثوبها ويجمله لها ويداعبها في حنو عظيم ورقة بالغة تدخل السرور على القلب الأخضر الصغيرة ، ويزيد إرتباطه وحبّه لمن يبذل له ذلك الحب الغامر .

ثم يحتمل عبثها الطفولي المستطلع في خاتم النبوة - وربما ألمه ذلك - في حلم رائع دونما تزمير أو عبس أو زجر ، بل وينهى أباه عن زجرها أو تعنيفها ، ثم يلاطفها ويدعو لها بالبركة وطول الأجل .

أى حلم هذا الذى وسع الكون كله بفيض صبره وإحسانه ؟ ، أى مربى هذا الذى يرتبط به أبنائه إرتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه أبداً ؟ .

يقول الأستاذ / عبد الله النصالح علوان في رائعته تربية الأولاد فى الإسلام « من الصفات الأساسية التى تساعد على إنجاح المربى فى مهمته التربوية ومسؤوليته التكوينية والإصلاحية هى صفة الإتران والحلم ، فبها ينجذب الولد نحو معلمه ، وبسببها يستجيب لأقوال مربية وبواسطتها يتحلى بالآداب المحموده ويتحلى عن الأخلاق المرزولة ويكون كالملك يمشى على الأرض وكالدرر يظهر فى الناس » (١) .

(١) تربية الأولاد فى الإسلام .

وهذا هو الرعيل الأول رضوان الله عليهم الذين رباهم رسول الله ﷺ
فكانوا هم خير البشر الذين تفتفى البشرية هدى خطاهم وتستضيء بإشراقات
سناهم .



الفصل الخامس [حَلَمُهُ ﷺ عَلَى الْخِطَمِ وَالْحَبِيبِ]

- المبحث الأول : فجاء بالماء فسقاها .
- المبحث الثاني : يا أنيس اذهب حيث أمرتك .
- المبحث الثالث : إحدى سوءاتك يا مقداد ! .

المبحث الأول [فجاء بالماء فسقاها]

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) [العلق : ٦ - ٨] .

ما أشد حرق الإنسان حين ينسلخ عن إنسانيته فيظن أنه غنى بذاته ، قادر بملكاته ، مقدر لمصائر بعض من هم دون جبروته من البشر ، متحكم في أرزاقهم بل أحياناً وفي نبض قلوبهم ؟ ، حينها يصبح الإنسان بشعاً قد جاوز في بشاعته كل حد حتى طفى وبقى فظلم وقهر وتآكله واستبد .

وما أشد حرق الإنسان حين ينسلخ عن إنسانيته فيظن ألا غناء له إلا بالمذلة للآخرين ، ولا توجه له إلا أن يوجهه الآخرون ، ولا حياة له إلا تحت سطوة الآخرين .

حينها يصبح الإنسان بشعاً قد تدنى في بشاعته إلى أدنى حد حتى ذل وضل ، واستبعد لكل من نصب نفسه إله ، وهنا يشتري الظلم والقهر وتتسع الهوة بين بنى الإنسان والتاريخ الإنساني ينزف مرارة وأسى ويثخن تحت وطأة ظلم البشر ما بين مثاله ومستبعد ، وقاهر ومقهور ، ما بين سادة ظنوا طينتهم فوق طينة البشر ، وعبيد أوهموا أن طينتهم دون طينة الحجر ، فكان الرق والاستعباد الذى انتشر فى أم الأرض ، « ولم تختلف معاملة الرقيق عند تلك الأمم كبير اختلاف إذا نحن إستثنينا أمة الإسلام » فقد كان الرقيق عند تلك الأمم لا يعدو أن يكون آله مسخرة تستخدم فى كل شئ وتستعمل فى كل الأغراض ، زيادة على كونه يجوع ويضرب ، ويحمل ما لا يطيق بلا سبب ، كما قد يكوى بالنار وتقطع أطرافه لأتفه الأسباب ، وكانوا يسمونه الآله ذات الروح ، والمتاع

القائم به الحياة » (١) .

وهنا كان لابد من منهج رباني يضع الموازين في نصابها الصحيح ، ويوقف الظالم على حقيقة ضعفه وخذلان مشيئته ، ويوقف المظلوم على حقيقة إنسانيته ويعمل على إحياء كرامته ويبقى حق الإلهية لله الخالق سبحانه وتعالى إذ منه البدء وإليه المرجع والمنتهى ، وكان المنهج هو الإسلام الحنيف بسماحته ونصفته وعدله ، وكان رسول الله ﷺ هو حياة هذا المنهج الفاعلة الصادقة برأفته ورحمته وسعة حلمه .

وقد تنسمنا من قبل نسائم رحمته المباركة بتلك الفئة البائسة من الخدم والعبيد ، وكيف كان تواضعه لهم « وشفقته عليهم وإحسانه إليهم فكان مفزعهم ومأواهم وكان أنفاسهم الطليقة من سجن سحيق ونبضهم الذى طالما اختنق تحت وطأة الذل والمهانة صلى الله عليك وسلم » يا من :

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو أن إنساناً تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء (٢)
لم يألو جهداً فى عتق إنسانيتهم « وعتق مشاعرهم ، وعتق كرامتهم ، وعتق رقابهم ، وها هو ﷺ يسعهم بحلمه ويشملهم بعفوه تضميداً لجراحاتهم ، وتأكيده لإنسانيتهم ، وجبراً لخواطرهم الكسير .

« قال الواقدي عن أصحابه المدنيين قالوا : نظرت أم أيمن إلى النبي ﷺ وهو يشرب فقالت : اسقنى « فقالت عائشة : أتقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ فقالت : ما خدمته أطول ، فقال رسول الله ﷺ : صدقت ، فجاء

(١) منهاج المسلم .

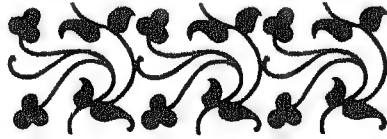
(٢) ديوان شوقي .

بالماء فسقاها رسول الله ﷺ » (١) .

إنه التحول الهائل الذى أزال القبح عن وجه الحياة ، واستبدل بالكفر إيماناً
ويقيناً واستبدل بالشرك توحيداً وإخلاصاً ، وبالسفاهة عقلاً وحكمة ، وبالضلالة
هدى ونور ، فأحال المذلة عزة وإباء ، وإذ بالأمة تستسقى سيدها ، بل وتعتبره
حقاً لها تدافع عنه بالحجة والبرهان .

تتعجب عائشة رضى الله عنها لجرأة أم أيمن على رسول الله ﷺ ، لكن أم
أيمن رضى الله عنها تدافع عن حقها من رسول الله ﷺ بقوة المؤمن الذى عز
بإيمانه ، ودلال من ينعم بحلم سيده وإحسانه ، ما الضير أن يخدمنى رسول الله
ﷺ بحق خدمتى له العمر ؟ ، ويحتوى رسول الله ﷺ مشاعرها بسعة حلمه ،
وجميل صبره وفيض رحمته وجم تواضعه ، فيصدق قولها ، ويروى عطشها
بعذب مائة ، ويروى قلبها بفيض رحمته ، ويروى دلالها بعذب حلمه وجميل
إحسانه .

صلى عليك الله ما صحب الدجى حاد وحتت بالفلا وجناء
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم بجنان عدن آلك السّمحاء (٢)



(١) البداية والنهاية .

(٢) ديوان شوقى .

المبحث الثاني

[يا أنيس اذهب حيث أمرتك]

لك الله أيتها القابعة في حضن الجزيرة هدّتك العداوات وانهكتك الثارات
لك الله أيتها السادرة في غيها وعين الله ترقب بقايا الخير فيها وتعد لها المجد
والخلود .

وها قد إغتنتم يشرب المنهكة غفوة في جفن الزمن لتعاود بعدها الكر
وتواصل الملحمة ، لكنها لم تك تدري أن إغفاءتها إغفاء يقظة لا حقد بعدها
ولا عداوات لم تك تدري أن عناية الله تلحظها بفيض من الرحمة والكرامة ،
وأن الريح الآتية من مكة تحمل معها رائحة الدهر وخبثية الأقدار من كل رائع
وحبيب فقد طربت آذانها لنشيد التوحيد المنطلق في مكة - تطارده نعرات
الجهل وتجثم عليه جذران الحقد وتجادله سفاهة العناد يطرب له قلبها ويترنم به
لسانها ، فانطلق صدهاء روحاً شفيفاً تتعانق خلاله طينية الأرض بنور السماء ،
وأصبحت المدينة المنورة الحضر الذي آوى الدعوة المباركة وأطبق عليها الجفن
وأسكنها سؤدد الفؤاد .

واتقَدَ الشوق اليقظ في القلوب المتعطشة للإرتواء بقرب الحبيب ﷺ
وتتحقق الأمنية الغالية ، ويلتحم الكون في عناق رائع سعيد ، الشمس تحتضن
حرارة القلوب ، الريح تداعب النخيل والزهور ، الأرض تقفز لتعانق السحاب
والنجوم ، الأيدى تتشابك ، القلوب تتوحد ، الحناجر تعزف لحن التكبير الخالد
في عرس المدينة الميمون ، فرحة بقدم رسول الله ﷺ .
ويسارع الأنصار رضى الله عنهم لإتحاف رسول الله ﷺ بما تجود به
قدراتهم إكراماً وترحيباً .

وتفتش أم سليم رضي الله عنها في قلبها الفرح المحب على أروع هدية يمكن أن تقدمها لرسول الله ﷺ فلا تجد أغلى من أنس رضي الله عنه ، فلذة كبدها زهرة شبابها ، وربيع أيامها ، وأمل عمرها صبي يدق أبواب العاشرة أو يكاد . لكنه فطن ذكي نجيب فتهديه رسول الله ليخدمه ، وإذ بسعادة دنياء وآخرته في قربه من رسول الله ﷺ ، ويحيى أنس رضي الله عنه كريماً سعيداً في بيت النوة الطاهر الكريم . ينهل من فيض نوره ويرقى في آفاق سموه . وها هو رضي الله عنه يشتنا ملمحاً رائعاً من ملامح حياته الهائلة في خدمة رسول الله ﷺ ، إذ يقول :

« كان رسول الله ﷺ : أحسن الناس خلقاً ، فأرسلني يوماً لحاجة فقلت : والله لا أذهب . وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق . فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك فقال : يا أنيس ، إذهب حيث أمرتك . قال : قلت : نعم أنا ذاهب يا رسول الله » ^(١) .

أشفقت أم سليم رضي الله عنها على وليدها ، ذلك اليتيم الذي لم يتيمه المنايا ولم يسلبه الموت حقاً من أبيه ، إنما هو الكفر والضلال والعناد ، إنما هو الأب الذي تخلى عن عقيدته ونكص على عقبيه . ومن تخلى عن عقيدته فما سواها عليه أهون . وإن كان الأهل والولد ، لكن القدر قد اختار ليتيم الضلال أب فوق كل الآباء ، وحمل له سعادة دونها كل سعادة .

ها هو يخدم في بيت رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين ، فإذا به في حضن أب رحيم يحنو ويتلطف ويحلم ويفيض عليه من كل خير ويبعثه ﷺ يوماً لحاجة فيتمرد أنس رضي الله عنه . تمرد الولد المدلل قد آنس من أبيه الحاني أفق

رحب من الحلم والصفح ، ويحلم رسول الله ﷺ ويتلطف للصبي حتى يذهب لحاجته ، ويتباطأ أنس ﷺ في العودة حتى يخرج في طلبه رسول الله ﷺ ليجده يلعب مع الصبيان ما قضى حاجته بعد ، فكيف كان رد فعل رسول الله ﷺ تجاهه . يمسك الصبي برفق ، تزين وجهه المبارك بسمة مشرقة تدفع الخوف أن يقرب قلب الصبي ، ثم يدلله مرخماً لاسمه زيادة للطمأنينة والحنو ، « يا أنيس ، اذهب حيث أمرتك » .

إنه القرآن الحى النابض ذلك الخلق الذى ترجم بصدق وأمانة روح الشرع الحنيف ترجمة عملية ، تكون هدى ونبراساً لكل مهتد مقتد ، وحجة دامغة على كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، حجة رادعة لكل مسيء لخدمته ممتهن لكرامتهم ، ذابح لمشاعرهم على أعتاب العز وذل الحاجة .

منهج عملى مضى ، يضع الإنسان حيث وضعه الله تبارك وتعالى أياً كانت طبيعة عمله ، أو مدى فقره أو غناه .

منهج يغرس الرحمة والإحسان فى قلوب الأغنياء ، ويذب الآه والدمعة عن قلوب الفقراء ، ويشيع روح الأخوة والمحبة والتسامح فإذا المجتمع متكامل متحاب متواصل متراحم .

المبحث الثالث

[إحدى سوءاتك يا مقداد]

ما أروع الطيب المبارك يتألق سحر سناه مع الأيام ، وكلما تطيّب وتطّيب به الناس إذ إزداد بركة ونماء ، إنه خلق رسول الله ﷺ مفزع الخائفين ومقصد الضعفاء المعوزين ، زمزم العطاش وخبز الجياع ومرواً جواد يصدر عنه القلب الظامى رياناً خصيباً .

وزهرتنا تلك المرة قد روى نداها عود المقداد بن الأسود رضى الله عنه وفاح شذاها يقص روائع الخلق النبيل ، والكرم العظيم ، والحلم الحانى ، فأرهف سمعك واستجمع قلبك - يرباك الله - لنشيد النسيم يترنم به المقداد رضى الله عنه فيقول :

« أقبلت أنا وصاحبان لى وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فليس أحد منهم يقبلنا ، فأتينا النبى ﷺ فانطلق بنا إلى أهله فإذا ثلاثة أعز فقال النبى ﷺ « احتلبوا هذا اللبن بيننا » قال : فكنا نحتلب فيشرب كل إنسان منا نصيبه ونرفع للنبي ﷺ نصيبه قال : فيجئ من الليل فيسلم تسليماً لا يوقظ نائماً ويسمع اليقظان ، قال : ثم يأتى المسجد فيصلى ثم يأتى شرابه فيشرب ، فأتانى الشيطان ذات ليلة وقد شربت نصيبى فقال : محمد يأتى الأنصار فيتحفونه ويصيب عندهم ما به حاجة إلى هذه الجرعة ، فأتيته فشربتها ، فلما أن ولغت فى بطنى وعلمت أنه ليس إليها من سبيل قال : ندمنى الشيطان فقال : ويحك ! ما صنعت ؟ أشربت شراب محمد ؟ فيجئ فلا يجده فيدعو عليك فتهلك ، فتذهب دنياك وأخرتك ، وعلى شمله إذا وضعتها على قدمى خرج رأسى وإذا وضعتها على رأس خرج قدمائى » وجعل لا يجيئنى النوم ، وأما صاحباى فناما ولم يصنعا ما صنعت ،

قال : فجاء النبي ﷺ فسلم كما كان يسلم ثم أتى المسجد فصلى ثم أتى شرا به فكشف عنه فلم يجد فيه شيئاً فرفع رأسه إلى السماء فقالت : الآن يدعو على فأهلك . فقال :

« اللهم أطعم من أطعمني واسق من أسقاني » ، قال : فعمدت إلى الشملة فشددتها عليّ وأخذت الشفرة فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن فأذبحها لرسول الله ﷺ فإذا هي حافلة وإذا هن حفل كلهن ، فعمدت إلى إناء لآل محمد ﷺ ما كانوا يطعمون أن يحلبوا فيه قال : فحلبت فيه حتى علتة رغبة فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال : أشربتم شرا بكم الليلة ؟ قال : قلت : يا رسول الله ﷺ إشراب فشرب ثم ناولني فقالت : يا رسول الله إشراب ، فشرب ثم ناولني فلما عرفت أن النبي ﷺ قد روى وأصبت دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض قال : فقال النبي ﷺ : « إحدى سواتك يا مقداد » فقالت يا رسول الله : كان من أمري كذا وكذا وفعلت كذا ، فقال النبي ﷺ : « ما هذه إلا رحمة من الله ، ألا كنت آذنتني فنوقظ صاحبينا فيصبيان منها ؟ » قال : فقالت : والذي بعثك بالحق ما أبالي إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس » (١) .

أنوار يتعانق لآلؤها ، ليبدع أبهى بستان لروعة الأخلاق « محبة وحنان » رحمة وإيثار ، جود وإحسان ، سمو وتواضع « صبر وحلم ، ترفع وزهد ، قناعة ووقار ، وفاء وإخلاص ، وغيرها الكثير أخلاق راقية رائعة ، وأروع فيها أنها تعانقت في قلب واحد هو قلب رسول الله ﷺ ، ومن غيره قد حاز مجامع الخير .

وأكثر ما يستوقفنا في ذلك البستان الخلقى البديع - وكله يستوجب وقفات ووقفات - سعة حلمه ﷺ لا للحلم في حد ذاته « فمنه ﷺ تدفق نبعه »

ورأيه منتهى قمته ، ولكن للحظة الجوع القاسية التي انبثقت منها هذا الحلم الرائع .

ذلك أن الحلم يمكن أن يسع كل غضب ، إلا غضبة البطن حيث تشتد قسوة الجوع ، إذ لا يقتصر الألم على البطن وحدها ، إنما يعصف بالكيان كله ماديه ومعنويه . فقديمًا قالت الأعرابية الحكيمة لابنتها : « فإن تواتر الجوع ملهه » .

وتلك الشربة من اللبن ربما كانت هي زواق رسول الله ﷺ في يومه كله ، كان خليقًا بالمقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد عضه الجوع وذهب بسمعه وبصره من ذى قبل وكاد يصعف به أن يقى منها رسول الله ﷺ الذى أنقذه من بين أنيابها . لكنه الشيطان الرجيم . ذلك اللعين الذى يلبس الزور ثوب الحق ، ويغلف المعصية بأبهى الزينة . ويبرر الخطأ دائماً ويقوى أعذاره ، حتى إذا كبا الإنسان ، واستمكن منه الخطأ إنهال عليه لوماً وتقريعاً فلا هو نجا من المعصية ، ولا هو سلم من اللوم والتقريع والندم .

ويأتى رسول الله ﷺ فتنساب نبراته الرقيقة الحنون سلاما دافئاً مهذباً ، يحتضن اليقظ ولا يقوِّظ النائم ، إنها عظمة الأخلاق الحميدة . يأتى بعد عناء حركة نشطة دعوب ، قد لبي خلالها نداء ربه ، ونداء دعوته ونداء إنسانيته . وقد آن له أن يلبي صرخات الطبيعة فى جسمه الجائع المتعب .

آن له أن يقتات ولو شربة من لبن تجمع عليه قواه التى أنهكها الجهد والجوع ، ويتوجه ﷺ إلى الإناء عله يصيب قوت ليلته ، وإذ به خاوٍ خواء معدته المستغيثه ، هل ضن عليه الإناء بجرعات من لبن يسد بها رمقه ؟ ، لا ليس الإناء - الذى ربما قد تألم لجوع رسول الله ﷺ إنما هو الشيطان الذى أغرى بها المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يرقب المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموقف بأساً بالغ ، وفى خجل وندم

ووجل من سوء فعلته ، وإذ برسول الله ﷺ يترفع على الأسباب مستعيناً برب الأسباب ، ويرفع يدين ضارعتين ما أخاب في الله رجاؤهما قط .

وترتعد أوصال المقداد رضي الله عنه ، وتحتبس أنفاسه وتشتد أنات ضميره ، وتعض أنياب الندم على أنامل الألم في قلبه المرتجف الوجل المرتقب لأخذة الله سبحانه وتعالى غضبة لنبيه ﷺ يالها من خسارة فادحة ، وتصارع أذناه كل أحاسيس متسمعة لدعوة رسول الله ﷺ .

وإذ بدعوة رسول الله ﷺ ليست على من حرمة طعمته إنما لمن يرسله الله بطعام لنبيه ﷺ .

أى حلم هذا ؟!

أية رحمة تلك ؟!

أى خلق يكون ؟!

لم يفرزع خادمه ولم ينتهره ، لم يتهمه أو يحقق معه ، لم يصب غضبة جوعه عليه ، إنما توجه لمن ثقته فيما عنده أكد من ثقته لما في بيته ، بل لما بين يديه ، ويفهم رسول الله ﷺ الموقف فيلاطف المقداد رضي الله عنه بدعابه لذيله ۝ بعض سوءاتك يا مقداد ۝ ثم تسرد له الأحداث وليس ثمة إلا الرحمة والحلم والإيثار ، ليس ثمة إلا الخلق العظيم ۝ خلق القرآن الكريم .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم ديناً لقامت وحدها	ديناً تضئ بنوره الآناء
زانتك في الخلق العظيم شمائل	يغرى بهن ويولع الكرماء ^(٢)

الفصل السادس حلمه ﷺ على غير المسلمين

- المبحث الأول : فقيل ألا نقتلها ؟ قال لا .
- المبحث الثاني : إن الله يحب الرفق في الأمر كله .
- المبحث الثالث : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .
- المبحث الرابع : ثم لم يعاقبه .
- المبحث الخامس : اللهم اهد أم أبي هريرة .
- المبحث السادس : اللهم اهد دوساً واثت بهم .
- المبحث السابع : حلماء في مدرسة الرسول ﷺ .

المبحث الأول فَقِيلَ أَلَا نَقْتُلُهَا ؟ قَالَ : لَا .

ما أقدم عداء القبح للجمال ، عداء الباطل للحق ، عداء الكفر والضلال والعناد للإسلام والمسلمين ، وقصة العداء الأسود قديمة قدم لحظة خلق آدم ﷺ عداء حقد وحسد ، عداء حسرة وألم ، عداء كفر واستكبار عن الطاعة والاستسلام ، عداء ترصد ووسوسة ، فكانت المعصية الأولى التي زلزلت الإنسان عن عرش نعيمه وعزته ، وانزلت به إلى أرض الشقاء والعناء ، وبدأ الصراع .

إنسان نبهته مصيبة المعصية الأولى ، فظل يقظ الحياطة ، حذراً بقدر المستطاع من وبال المعصية ، فكان بمنجاة ، وآخر نسي أو تناسى ، وانتكس فكان مسرحاً مهياً لألاعيب إبليس اللعين ، واستفحل الخطب فجنّد إبليس اللعين فريق البلهاء ليرمى بهم الصلحاء الأتقياء ، وانتصب في ساحة المعركة ينفث ناراً لا تخبو أبداً ، ولا تهدأ قليلاً ، إنما هي مشتعله دائماً مضطربة أبداً اضطرام الحقد والحسد والكراهية في قلبه - لعنه الله - بل استنسخ له نظائر مكرورة في كل زمان ومكان من أبالسة آدميين فاقوا أستاذهم في الكفر والكيد والضلال .

وحمل الوطيس وتجالد الفريقان ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٠] ، بدأت المعركة بإبليس وحده عليه لعنة الله ، ثم قويت شركته بجنده المخلصين من عهد قاييل إلى الدجال ، بل إلى قيام الساعة يتولون عدو الله ويصدون عن سبيل الله ويقفرون للمؤمنين بكل سبيل يشككون في الرسالات ، ويكذبون الأنبياء والمرسلين ويذبحون الطهر والكمال ﴿ يُرِيدُونَ أَن

يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ [التوبة : ٣٢] .

استجلد إبليس وجمع الجمع وأعد العدة لأكبر معركة فصلت بين الحق والباطل ، بين النور والظلمات ، بين الهدى والضلال ، بين الكفر بملله ونحله متمثلاً في المشركين والكافرين في مكة ، واليهود والمنافقين في المدينة ومن سار على نهجهم ، وسمع بصمم آذانهم ، ورأى بظلمة عيونهم وبين الإيمان بصدقه وبقينه وتفردته متمثلاً في رسول الله ﷺ قائداً ومعلماً ، وكوكبة المؤمنين الصادقين جنداً أمناء طائعين ، وكما كان لمشركى مكة صولات وجولات على الإسلام والمسلمين ، كذلك كان لليهود والمنافقين ، ذلك أنهم جند إبليس العمى الطائعين ، وفدائيوه السذج المغررين كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه الحكيم .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [المائدة : ٨٢] ، وتلك العداوة السامة ليست عداوة عن جهل ، فالإنسان بالطبع عدو ما يجهله ، إنما هي عداوة حقد وموجده ، عداوة تكبر وغطرسة ، عداوة حسد وعناد ، عداوة من يعلم ويصبر على حجود العلم والإنكار ، وهذا هو عزاء الله عز وجل لنيبه فيهم ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

كانت مصيبة المشركين عظيمة إذ حجدوا الرسالة وحاربوا الرسول ﷺ وصبروا على أوثانهم وضحوا من أجل سفههم بالنفس والنفيس أما مصيبة اليهود فكانت أدهى وأمر ، ذلك أن المشركين قد استيقنوا حقيقة الرسالة وصدق الرسول ﷺ بفطرتهم التعبدية ، واستدلالاتهم العقلية ، وملكاتهم اللغوية ، أما اليهود فكانوا يعرفون الرسول ﷺ كما يعرفون أبناءهم ويعلمون أن رسالته

إنما أشرقت من نفس المشكاة التي أشرقت منها رسالة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

كانوا يعرفونه باسمه ورسمه وأخلاقه ومبادئه وصفاته المدونة في التوراة ، ومع ذلك قد عرفوا وأنكروا ، وأيقنوا واستنكروا ، وأنهم الهدى فضلوا واستكبروا ، بل كانوا سبباً رئيسياً في ضلال المشركين ، إذ استفتوهم في أمر الدين الجديد بوصفهم أهل كتاب سماوى ولديهم أثارة من علم فخاؤا أمانة العلم وكذبوا المشركين في الله ورسوله فضلوا وأضلوا وحسدوا وحقدوا وأخذوا ينفثون سمومهم كيداً للإسلام ولأمة الإسلام ولنبي الإسلام ﷺ .

وهاهى سمومهم الآثمة يشعلوها على رسول الله ﷺ غدراً إذ أمنهم وخيانة إذ أحسن الظن بهم ، وهل اليهود غير الكيد والغدر واللؤم والخديعة ؟ .

« عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجاء بها فقيل ألا تقتلها ؟ ، قال : لا فما زلت أعرفها في لهواته » ^(١) .

وتفصيل القصة كما جاءت في كتب السيرة أنه في غزوة خيبر « أهدت زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم أحد زعماء اليهود شاة إلى رسول الله ﷺ وقالت : أى عضو من الشاة أحب إليه ؟ ، فقيل لها الذراع ، فأكرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، وجاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله ﷺ فلفظها وقال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ، قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان ملكاً

(١) صحيح البخارى ، باب قبول الهذية من المشركين ، كتاب الهبة وفضلها .

استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر ، فتجاوز بها رسول الله ﷺ ومات بشر من أكلته .

إنها الفطر المنتكسة ، والطبائع المرزولة ، والنفوس الشائثة السقيمة ، إنه يدين اليهود وهويتهم الدنسة الشاذة ، قتل الأنبياء بغير الحق وها هو تاريخهم الأسود العفن مثقل بعارهم لأبدى الشنيع وها هو خنجرهم الخبيث المسموم نفوح منه رائحة الغدر والخيانة وتقطر منه دماء طاهرة بريئة ، كما تقطر منه دماء كثير من أكرم خلق الله على الله ، رسل كرام جاءوهم بالهدى والنور ، أتوهم بخلاص الروح والبدن ، فما كان جزاؤهم إلا إزهاق الروح وإتلاف البدن . وهذه هي شهادة الله عليهم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (٨٧) [البقرة : ٨٧] .

إنه حجة السفهاء ومنطق البلهاء الذين لا تقوى نفوسهم على مواجهة الحق ولا تقوى قلوبهم على الاستبصار بنور الحقيقة ، إنما هو اغتيال النور وذبح الهدى ، وهاهم يلبسون لرسول الله ﷺ ثوب إبراهيم عليه السلام على قلب إبليس لعنه الله ، فيتحفونه بشاة حشوها زعاف حسدهم وأنضجوها بضرام أحقادهم ، وزينوها بلؤم قلوبهم ، وقدموها على مائدة غدرهم هدية مبيغض خائن لناصح شفيق أمين ، هدية قاتل غادر لمنقذ مخلص كريم .

أى سفه هذا ، وأية بلاهة من قوم يعلمون أن محمداً ﷺ مرسل من عند الله ، بل يوقنون بشهادة توراتهم واعتراف علمائهم أنه نبي يأتيه وحى السماء في ساعة من ليل أو نهار ، ثم يتوهمون أن مرسله نالى خازله ؟ ! ، إنها والله سفاهة ما بعدها سفاهة . وهذه هي شهادتهم ساقها الحارث بن عوف فقال :

«... والله ليظهرن محمد على ما بين المشرق والمغرب ، وإن يهوداً كانوا يخبروننا بهذا ، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول : إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بنى هارون إنه لمسل ، ويهود لا تطاوعنى على هذا ، ولنا منه ذبحان » واحد بيثرب وآخر بخيبر » قال الحارث : قلت لسلام « يملك الأرض ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى » (١) .

هذه هى شهادتهم وذاك يقينهم ، ثم بعد هذا يسعون المرة تلو المرة . ويتفتق بركان شـ بهم عن الحيلة بعد الحيلة للقضاء على رسول الله ﷺ ، لكن هيهات هيهات مع حفظ الله ونصره .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧) [المائدة : ٦٧] .

ولأن الله لا يخلف الميعاد فقد أخبر رسوله ﷺ بالمؤامرة الدنيئة والخيانة العظيمة ليقتل لذة الخيانة ، ونشوة النصر فى القلوب الذئبية الوبيئة .

ويستدعى رسول الله ﷺ زينب بنت الحارث أداة الجريمة وأصابع التنفيذ فيها ، فتعترف لا لأنها صادقة ، إنما لعلمها أن إنكارها لا يصمد أمام وحى الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ، وتسوق المرأة مبررات تلك الجريمة التى لم تكن فردية ، إنما هى بلورة لفكر يهود ، وترجمة لحقد يهود ، وأصابع ليد يهود .

إن أدنى عقوبة لتلك الجريمة البشعة هى أن تأكل تلك المرأة هذه الشاة التى سمتهها بيديها الآثمتين عن آخرها ليكون تدميرها تدميرها فتكون عبرة لكل معتبر « هذا إن لم يفتك بكل يهود جزاءً وفاقاً - والجزاء من جنس العمل - لكن رسول الله ﷺ يعفو ويصفح ويحسن ويتكرم ، إنه محمد رسول الله ، إنه

الحلم الرائع فى مواجهة السفاهة والترفع الراقى فى مقابلة الدناء وضوء الشمس يحاول تطهير الكهوف العفنة المظلمة ، وأياً كان مصير المرأة أسلمت وحسن إسلامها ، أم قتلت فيما بعد قصاصاً ببشر بن البراء رضي الله عنه حين مات من أكلته - على اختلاف الخبر فى كتب السيرة - ففى النهاية قد تجاوز رسول الله ﷺ عن إساءتها وتنازل عن حق نفسه فى القصاص منها .



المبحث الثاني

[إن الله يحب الرفق في الأمر كله]

إذا نطق السفیه فلا تجبه فخير من إجابته السکوت ^(١)
 هذه هی قيمة السفهاء فی کل زمان ومکان .

ومرة أخرى مع اليهود - لا جمعنا الله بهم أبداً - هؤلاء القردة والخنازير
 قرحة کل کبد مسلم ، وغصة کل خلق موحّد ، وحزن کل قلب مؤمن
 صادق الإيمان ، وأرق کل عقل إنسانی يحترم الإنسان ويعترف بحرمته ، اليهود
 هم العدو الحقيقي للإسلام والمسلمين لا لكونهم موسويين فموسى على نبينا
 وعليه الصلاة والسلام لبنة مباركة فی بناء الإسلام الحنيف ، الذی أتمه الله عز
 وجل ، بمحمد ﷺ ، لا بوصفهم مخالفين لنا فی الدين والعقيدة ، فإن الله عز
 جابه وعلت . كلمته قد حسم الأمر بداية بقوله الكريم .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٥٦)
 [البقرة : ٢٥٦] .

إنما لكونهم أعداء الرسل والرسالات ، غارسى كل قبح ورزيلة ،
 حاصدى كل فضيلة وعفه ، مد مرى كل جميل بناء ، اليهود هم سرطان
 الأمم وأمراض الشعوب ، إنهم عار الإنسانية ووجع كل ضمير حى ، وعداء اليهود
 للإسلام منذ اللحظة الأولى التى خرجت فيها النبوة عن بنى إسرائيل حيث
 كانت انهياراً لزعمهم الفاسد أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المدلل المختار .

(١) عمر بن عليّ ، عن كتاب « أدب الدنيا والدين » .

ثم اضطربت نيرانهم منذ أشرقت المدينة المنورة بنور ربها وشرفت بقدم رسول الله ﷺ لها ، ولم يهدأ أوارها منذ اندلاعها حتى الآن ذلك أنهم رأوا في رسول الله تقويضاً لسلطانهم على المدينة ورأوا في الإسلام كساداً لتجارتهم باسم الدين « ورأوا في وعى المسلمين وحركتهم النشطة الدعوى تهديداً لهيمنتهم الاقتصادية على البلاد آه ، ما أقسى وجع الذاكرة المثقلة بمآسى يهود حين تستعرض بعض تلك المآسى المروعة الرهيبة سيما حين تمس تلك المآسى المؤلة شخص رسول الله ﷺ إذ هو روح الإسلام الحية النابضة وقمته الشاهقة المثمرة ، وصورته الحقيقية الواضحة ، خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وها هي وخزة يهودية قاسية مريرة في الوجدان الإسلامى المرهف الفياض .

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : « دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قال عائشة : ففهمتها فقلت : وعليكم واللعة » قالت : فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا ؟ ، قال رسول الله ﷺ قد قلت : وعليكم ^(١) .

أعيت اليهود إخفاقاتهم المستمرة في القضاء على رسول الله ﷺ وخابت مساعيهم المستميتة ، وأجهضت حيلهم الدنيئة حيلة إثر أختها وكل إخفاقه لكيدهم تزيد الحقد اشتعالاً ، وكل بطلان لسمومهم تزيد السم فتكاً وشراسة فيضطرم الحقد في قلوبهم ناراً لا تخبو قليلاً ، ويسرى السم في أفكارهم خدعاً رخيصة لا تهدأ أبداً . ومع هذا فلم يجدوا مناصاً من التعامل مع رسول الله ﷺ كأمر واقع وحقيقة ثابتة في المجتمع الذي يحيون فيه ، لكن تعاملهم معه من منطلق خستهم ، ومنطق لؤمهم وهامهم أخيراً قد لجأوا للشتم والسباب وإنه

(١) صحيح البخارى « باب الرفق في الأمر كله ، كتاب الأدب

لأسلوب الفاشل المنهزم المدحور .

يدخلون على رسول الله ، بشوب حمل يشف عن قلب ذئب ، ولسان
سفه يغلف سمه بالود ، ويلقون السلام على طريقته المراوغة العفنة التي
يخادعون بها الضمير العالمى السقيم الآن ، ويسخرون بهذا السلام ، من
العقول المغررة التافهه ، ويسدلونه ستاراً قذراً يخفون وراءه خناجرهم الموجهة
المسمومة ، لكن مع رسول الله ﷺ فهيها هيهات ، وتبرى لهم عائشة رضى
الله عنها بشورة الشباب وحماس إيسائهم تنافع عن رسول الله ﷺ وترد صاع
اللاثم بصاعين ، وحق لها أن تثور وتأبى لرسول الله ﷺ ، وحق لها أن تنافع عن
الزوج الحبيب ، فأى رسول هو ؟ ، وأى زوج يكون ؟ .

وحق لها أن ترى مكر اليهود يقظتها وفطنتها كأنما استحضرت قول القائل :

سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب وما عيت ^(١)

لكن رسول الله ﷺ يستمهلها بتعقل الحكماء وترفق الأقوياء وتفضل الكرماء ،
مهلاً يا عائشة ، لا ينالوا من عليائك بسفههم ، لا تلوثى شفاهك الطاهرة ولسانك
الذاكر بستمهم ترفقى يا عائشة ، فإن الله يحب الرفق فى الأمر كله .

هذا هو ترفع رسول الله ﷺ عن حظ نفسه ، وحلمه الأسى فى مواجهة
السفاهة الحاقدة ، والجهالة البذيئة وقديماً قال الشاعر الحكيم :

أوكلنا طسن الذاب طردته إن الذباب إذن عليّ كريم

وما أرق ذلك المترفع عن الفحش إذ يقول :

وإن تك قد سابتنى فقهرتنى هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذق

وما أرجع عقل ذلك الشادى بمكارم الأخلاق :

وللكف عن شتم اللثم تكرماً أضر له من شتمه حينى شتم

المبحث الثالث

[دعني يا رسول الله أنخرب عنق هذا المنافق]

ما نكاد نبتعد بالخاطر المجهد قليلاً عن دنس اليهود ومراوغاتهم حتى تطاردنا أذنانهم وصنيعة أيديهم من حلفائهم وأنصارهم وخدامهم الأوفياء الخلس ، من هؤلاء الأذئاب عبد الله بن أبي بن سلول حليف يهود الذي صيغ على طريقتهم وتنكب خطاهم العشرة المخادعة .

والحديث عن عبد الله بن أبي بن سلول حديث ذو شجون ، لكثرة أياديه السوداء على الإسلام والمسلمين ، وهذه هي ذاكرة التاريخ الإنساني تتضوع ألماً بما خطه ابن سلول بين طياتها من الخزي والعار ، وما أتبعه من الأساليب الرخيصة في حرب العقيدة وعداء الذين ، وقد اختار هذا المنافق اللعين أقصر الطرق وأعظم الأهداف لتصويب سهامه المسمومة للقضاء على الدعوة في شخص الداعية الأعظم ﷺ ، فكان ترويجه الرخيص لحديث الإفك إذ بذر بذوره الأبلسيه فاستنبتت لهباً شيطانياً أخذ المنافق ينفخ فيه ليضطرم أواره ظناً منه أن أقصر طريق لموت الدعوة إنما بالقضاء على الداعية ، وأسرع قضاء على كتيبة الإيمان إنما بموت قائدها وتنكيس رايتها ، لكن الله عز وجل رد كيده في نحره « وفضحه على رؤوس الأشهاد وحفظ رسوله الكريم وبيته الطاهر الشريف من سم ذلك الأفعى اللعين ، ولما لم يجد إلى رسول الله ﷺ سبيلاً فماذا يفعل وسمه يفر في عروقه إلا أن ينفثه في قلوب المؤمنين ليقوض رباطهم ، ويهدم صفهم » ويشتت جهودهم ، فتخور قواهم ، وتفصم عراهم ، فأخذ يضرب المؤمنين بعضهم ببعض فتارة ينفخ في نار العداء القديم الذي أحالها الإسلام إلى محبه وسلام ، وأخرى يؤلب الأنصار على المهاجرين ، وهكذا لا تخبو نار

قلبه ولا يهدأ سم أنيابه ، كل هذا وهو يرتدى زى الإسلام ، ويلبس مسح
العباد والزهاد ، بل يحمل سيفه السقيم مضياً مع جند الله كأنه أحدهم وهو في
حقيقته أضر عليهم من العدو المواجه .

والأحداث تدور الآن في طريق عودة جند الله المظفرين من المريسيع إلى
المدينة المنورة بعد انتصارهم المبارك على بنى المصطلق نصراً أجج نار الحقد
الأسود في قلب المنافق ابن سلول واشتد فوران السم في عروقه الخبيثة فتقاذف
بغضه حمماً تم عما بداخله من بركان فقال :

« والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فقال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ :
« دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ^(١) .

والقصة كما ذكرها ابن كثير والخازن وصاحب الظلال - رحمهم الله
تعالى - وكما هي في كتب التفسير والسيرة أن مهاجري وأنصارى قد تلاحيا
على المياه في طريق عودة الجيش ، فغلب المهاجري الأنصارى ، فوجد فيها ابن
سلول فضالته المنشودة وفرصته الذهبية للتنفيس عما يعتل بصدره ، ولضرب
الناس بعضهم ببعض « أفعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا » والله ما مثلنا
ومثلهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى
المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا
ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم .

إنها دعوة القوميات والقبليات في كل زمان ومكان التي تقطع الوشائج
وتوهن الروابط وتفصم عرى الأخوة والعقيدة فإذا الأخوة غرباء وأبناء العمومة

(١) البخاري ، باب لبس القميص ، كتاب اللباس .

أعداء « وإذا بالأعداء الحقيقيين يلبسون ريش الحمام على أنياب الأفاعي وقلوب الذئاب - وما أشبه الليلة بالبارحة - .

وتصل تلك الدعوة الخبيثة إلى رسول الله ﷺ ولشد ما آلمته ونالت من سكينته خوفاً على الإسلام وشفقة على المسلمين وهو يعلم أنها ليست الوحيدة من ابن سلول، بل إن ما سلف كان أخبث منها وأحط ، ولن تكون الأخيرة ، فالأفاعي ما زالت حبلتي بشتي أصناف السموم . وينتفض لها عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتفاضة من وهب نفسه لله عز وجل وشهر سيفه للذئب عن الإسلام والمسلمين وإزاحة ما يعترض طريق الدعوة من عقبات ، وشتان ما بين جند الرحمن وجند الشيطان « دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله » ، هذا هو الجزاء وذلك هو حسم القضية كما ينبغي أن يكون .

لكن حلم رسول الله ﷺ قد فاق كل حلم وبعد نظره قد أدرك كل العواقب فقال : « دعه يا عمر لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، فتكون المفسده أعظم والخطب أخطر .

إن ابن أبي واجهة براقه ، مسلم يلزم قدم رسول الله ﷺ ويروح ويغدوا في ركاب المسلمين « هكذا عرفه الناس ، ولم يعلم معظمهم ما تنطوى عليه دخليته من عدا وحق للإسلام والمسلمين « وقتله قد يثير الخوف والشك في قلوب من لا يعرفون حقيقته » هكذا قد وسع حلم رسول الله ﷺ سفاهة ابن سلول واحتمل الصفح أذاه فكان كما قال القائل :

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

لكن الموقف لم ينته بعد ، إذ أنه من الخطورة بمكان ليس بالهين ، ويسأل رسول الله ﷺ ابن سلول سؤالاً يحمل رسالة مؤداها أن الله خاذلك وفاضحك وإن تواريت خلف ألف جدار من المكر والنفاق وأن القيادة يقظه واعية ، وأن

الجند أوفياء مخلصون ، أنت صاحب هذا الكلام الخبيث الذى بلغنى ؟ .
ويتوارى المنافق خلف بجاحته ويتذرع بأيمانه الكاذبة . ■ الذى أنزل
عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيدا الكاذب ■ وزيد بن أرقم رضي الله عنه
هو الذى بلغ رسول الله ﷺ مقولة عبد الله بن سلول ، هكذا هم المنافقون فى
كل زمان ومكان ، أناس مشوهون من الداخل ضعاف النفوس ■ مهزوزوا
القيم ، مخذولوا الإرادة ■ خسيسوا الطباع ، جناء لا يقوون على المواجهة ■
إنما يتوددون فى الوجه ويطعنون من الخلف ثم يتبرأون من جرائمهم كذباً
وزوراً ، وينكرون ويزرفون دموع التماسيح إذا وجهوا بتلك الجرائم

وها هو ابن سلول ينكر قوله ، ويقسم الأيمان المغلظة على براءته بل يدعى
أنه الموشى به المظلوم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] .

وكان عبد الله فى قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر من الأنصار من
أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد وهم فى حديثه ولم يحفظ ما
قاله

هكذا هم الوجهاء دائماً فى كل زمان ومكان ، يجدون من يحسن الظن
بهم ولا يعدمون أنصاراً يحسنون إساءاتهم ويسترون سوءاتهم ويجميلون
قبائحهم ، وينافحون عن عظمتهم المزعومة ، أما زيد بن أرقم رضي الله عنه الذى لا
تدق له الطبول فهو الكذاب رغم صدقه ، وهو الواهم رغم يقينه ■ وهو المدلس
رغم أمانته وغيرته على الإسلام ورسوله والمسلمين .

ويغض رسول الله ﷺ لقسم المنافق ، لا انخداع الخب المغرر حاشاه حاشاه
ولكن إغضاء الحليم المتكرم المفضل ، وينزل القرآن الكريم يحكى قصة النفاق
وينشر على الملأ فضائح المنافقين .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) ﴿ [المنافقون : ٧ - ٨] .

ومع هذا يظل رسول الله على حلمه ولا تغريه عروض المؤمنين في استعداد سيوفهم لقتله ، وهذا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه ، وقد جاء يتبرأ من نفاق أبيه ويعرض على رسول الله ﷺ أن يكفيه مؤونة قتله ، لكن رسول الله ﷺ لا يقابل هذا الوفاء العظيم من ذلك المؤمن الصادق إلا بمزيد من الحلم والإحسان فيقول : « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » صلى الله وسلم وبارك على أرق نسمة في العالمين .



المبحث الرابع [ثم لم يحاقبه]

الكفر كله ملة واحدة ، وإن تعددت صوره ، واختلفت مسمياته ، فمساويه شتى ، وأمانيه مشتركة ، وأساليبه إبليسية ، وهدفه واحد هو إطفاء نور الله عز وجل ، وهيهات هيهات .

وكان أقصر الطرق لتحقيق هذا الهدف الدني هو قتل حاملي مشاعل الهداية ، واغتيال الفجر البازغ في ظلمات ليلهم الدنس العرييد ، وهذه أيدي اليهود الآثمة ما زالت تقطر منها دماء كثير من أنبيائهم - عليهم السلام - هذا دم يحيى عليه السلام مازال يفور في ذاكرة الضمير الإنساني ، وهذى رأسه الطاهر يتضوع ألماً أن قدم مهراً لبني ، وهل مهر البغايا إلا ذبح الطهر وسفك العفاف ؟ .

وهذا صليب الغدر الذي نجى الله منه عيسى عليه السلام ، مازال جائماً على صدر الزمان يحكى مأساة الفطر المنتكسة ومطاردة الظلام لكل ضوء رحيم وهل يصلب النور دائماً إلا على خشبة اليوم والخفافيش ؟ .

وها هو شمس الحق ونور الحقيقة محمد رسول الله ﷺ ، تحاك له المكيدة تلو المكيدة ، وتحكم لاغتياله الخطة تلو الخطة ، وترصد له الفرصة تلو -الفرصة - ومعنا الآن محاولة من عشرات المحاولات التي استهدفت اغتيال الإسلام في شخص رسول الله ﷺ .

« عن سنان بن أبي سنان الدؤلى أن جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما - أخبره أنه غزا مع النبي ﷺ فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاء ، ففرق الناس

في العضاة يستظلون بالشجر ، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ثم نام « فاستيقظ وعنده رجل ولا يشعر به ، فقال النبي ﷺ : إن هذا اخترط سيفي فقال : من يمنعك ؟ قلت : الله ، فشام السيف فهو جالس ، ثم لم يعاقبه ... وفي رواية : « فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال : تخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال الله » (١) .

قفل رسول الله ﷺ بالجيش عائداً من غزوة غزاها ، فلما أجهدهم المسير وأدركتهم القائله ، حطوا رحالهم وتفرقوا في العضاة ، ينشدون شيئاً من الراحة ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة قد علق سيفه بها ، ونام تحتها هادئ النفس « مطمئن القلب ، قرير العين ، ولم لا » وهو قد خرج في سبيل الله ، وهو يجاهد لله وبالله ، وهو يثق تمام الثقة بمعية الله خير الحافظين .

نام رسول الله ﷺ لكن عين الغدر لم تنم « إنما هي يقظة ترصد الهدف ، وتتحين الفرص ، وهاهي فرصتها المرتقبة قد واتتها ، وها هو رسول الله ﷺ مستغرق في نومه تحت الشجرة » وها هو سيفه معلق فوقها ، وهاهم الصحابة متفرقون عنه في الوادي قد كفاهم النوم مؤنتهم ، كل الأسباب مهياه ، لكن خالق الأسباب فوق كل الأسباب « ويخترط المشرك الغادر سيف رسول الله ﷺ ، ليغتاله به ، هيهات هيهات ، فهل له من سيف رسول الله ﷺ إلا كما لقوم إبراهيم عليه السلام من نار إبراهيم .

يستيقظ رسول الله ﷺ « وذلك المشرك على تلك الحالة من التأهب والتحفز ويندهش ذلك المتوشح سيفاً من ثبات رسول الله ﷺ وعدم ارتياعه

(١) صحيح البخارى ، باب نفرق الناس عن الإمام عند القائله والاستغلال بالشجر ، كتاب الجهاد والسير .

فتنطلق دهشته سؤالاً حائراً ومتعجباً معاً : ألا تخافني ؟ ، هذا أنا بكل حقدي
وغدري ونشوة الظفر بك ؟ ، وهذا هو السيف . بعنفوانه وجبروته ، وسطوته ،
ألا تخافني ؟ .

ويجب رسول الله ﷺ بنفس هدوئه وثبات قلبه « لا » إنه اليقين في الله .
وهل لقوة النفس المؤمنة أن تنهوى أمام فجاءة الغدر والخديعة ؟ .
وهل لعزة المؤمن أن تنهزم أمام أسباب الخوف ؟ .
وهل لثبات القلب الموحد أن يرهبه بريق السيف ؟

معاني لا يدركها مشرك أحقق ، قد اتخذ إلهه هواه ، وعبد الشجر والحجر
من دون الله ، وتزداد دهشته وتتسع حيرته ، فيعود ليسأل من جديد من يمنعك
مني ؟ ، ويجب رسول الله ﷺ بيقين الواصل في ربه عز وجل : الله ، وهنا تخور
قوى الرجل فترتعد فرائضه ، وينطفئ بريق السيف في عينيه وتخبر نار الحقد في
قلبه ، ويجلس زاهلاً مستسلماً محقراً لأحجاره وأشجاره التي ما منعت عبيدها
يوماً ولا ملكت دفع الضر عنهم ولا تحويله .

معظماً لرب محمد ﷺ الذي حفظه والسيف قاب قوسين منه أو أدنى ،
ومنعه والموت متحضر في حد السيف السليط . الموقف الآن قد تحول إلى الضد
تماماً ، السيف بإحدى يدي رسول الله ﷺ والرجل بيده الأخرى والحق معه ،
والعقل يؤيده ، والله ناصرهم وماهى إلا ضربة واحدة ليصبح الرجل بعدها مجداً
في أرض غدره مأخوذاً بجبريته ، لكنه محمد رسول الله ﷺ ، رسول المحبة
وداعية السلام الذي رباه ربه عز وجل على مكارم الأخلاق فقال :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ولهذا فليس ثمة إلا العفو والمغفرة ، ليس ثمة إلا الحلم والإحسان صلى
الله وسلم وبارك على معلم الأمة الحلم والترفع على أسباب الغيظ ، إذ قال :
« من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس
الخلائق حتى يخيروه من أى الحور العين شاء » ^(١) .
والقائل « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه
عند الغضب » ^(٢) .



(١) البخارى .

(٢) البخارى ، باب الحذر من الغضب ، كتاب .

المبحث الخامس [اللهم اهد أم أبي هريرة]

وارباً بحلمك في النوازل أن يلم به الجزع ^(١)
ما أرفع النفس حين تغض الطرف عن زلات الآخرين ، وما أغناها حين
تترفع على خط نفسها ، وما أكرمها حين تتصدق على المسيئين بنصيبها من
الإساءة .

هكذا كانت نفس رسول الله ﷺ رفيعة غنية كريمة مفضالة تشفق على
المسيئين ، أن كبلتهم طينتهم وأهاضت أجنحة السمو في نفوسهم فقصرت
دون التحليق في عالم الفضائل وسماء القيم ، بل إن تجاوز رسول الله ﷺ عن
الإساءة قد أذاب قيدها من حول رقاب كثير من المسيئين فانطلقوا بفضل من
الله وبركة تفيض من مكارم أخلاق رسول الله ﷺ إلى أفق الفضائل .

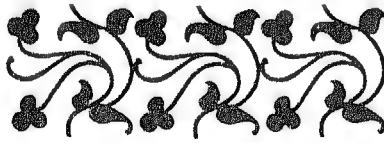
وهذا أبو هريرة رضي الله عنه تفيض أزهاره بشذى بركة أخلاق رسول الله ﷺ التي
تظهر القلوب ، وتبصر العقول ، وننتج الآذان الموصدة حيث يقول :

« كنت أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَنَبِيٍّ - شَرَكَةٍ فِدَعَوْتَهَا يَوْمًا فَأَسْمَعْتَنِي نَبِيٍّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْتِي عَلَيَّ فِدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعْتَنِي فَبَكَتْ مَا
أَكْرَهُ فَأَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ » فقال رسول الله ﷺ : أَلَيْسَ أَهْدَى أُمَّ أَبِي
هُرَيْرَةَ ، فَخَرَجَتْ مُسْتَبْشِرَةً بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا جَنَّتْ قَدَرْتُ إِلَى السَّابِ
فَإِذَا بِهَا مَرْجَبَاتٌ مُسْتَبْشِرَاتٌ أُمِّي مَحْشَنَةٌ قَدَارٍ فَقَالَ : مَكَارِمُ أُمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ

وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت وليست درعها وعجلت عن خمارها
 ففتحت الباب ثم قالت : يا أبا هريرة « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً
 عبده ورسوله ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح ،
 قال : قلت : يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدي أم أبي هريرة ،
 فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً » ^(١) .

جاء أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعالج حزينين ويبكى أُمّين - يعالج حزنه من أمه
 وعليها - ويبكى إساءة أمه لرسول الله ﷺ وهو الحبيب القريب المفدى بالنفس
 والمال والولد ، ثم يبكي شرك أمه وإصرارها على الكفر وخوفه عليها وهو الابن
 البار الشفوق .

ويدرك رسول الله ﷺ عذابات أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيرحمه في أمه ويتجاوز عن
 إساءتها ويحلم على تطاولها عليه ﷺ ، ليس فقط إنما يدعو لها بالهداية رحمة
 لها « وإكراماً لإبنها الصحابي الجليل الذي كرس حياته للعلم والتلقى عن
 رسول الله ﷺ ، وهكذا تسلم أم أبي هريرة ببركة الحلم وروعة البر .
 ألا ليت المسلمين يتعلمون ، وليت الدعاة إلى الله يتقون الله فيما
 استرعاهم فيه .



(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٩١) .

المبحث السادس

[اللهم اهد دوساً وانت بهم]

ولإن استدعت شفقة أبي هريرة على أمه وحبها لها تجاوز رسول الله ﷺ عن إساءتها ودعائه المبارك لها فهل تستعدى نغمه الطفيل بن عمرو رضي الله عنه على قومه ويأسه من إسلامهم مشاعر رسول الله ﷺ عليهم ، وهل عساه يهلكهم بدعائه عليهم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن دوساً هلكت وعصت وأبت ، فادع الله عليهم فقيل هلك دوساً ، قال : « اللهم اهد دوساً وانت بهم » ^(١) .

إن موقف الطفيل بن عمرو رضي الله عنه من قومه موقف المسلم الغيور على دينه ، المتحمس لنصرتهم ، المتعجل نشره ، الشائر على كل عقبة في طريقه ، وإن كانت خاصته من أهله وعشيرته .

أما موقف رسول الله ﷺ فموقف الداعية المخلص الأمين ، الذي لا يألو جهداً لتبليغ دعوته ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلاً ، إنما هو البذل والتضحية والرفقة والرحمة ، والصبر والمجاهدة ، والحلم والملاطفة والدعاء المخلص الرحيم الذي لا توصله دونه أبواب ولا تحجبه حجب .

هكذا علمنا رسول الله ﷺ معنى الحلم ، هكذا علم الأمة ألا تحرم نفسها ثمرة الحلم وجميل عواقبه ، سيما بين المسلمين بعضهم البعض ، إذ تجمعهم أخوة العقيدة ووحدة الدين لما للحلم من أثر واضح في دوام الود وإشاعة روح

(١) البخاري ، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم ، كتاب الجهاد والسير .

التسامح والمحبة بين الأمة فرادى وجماعات « بل هكذا علمنا كيف يكون العلم حتى على غير المسلمين « ليس عن ضعف واستكانة « إنما عن تكرم وتفضل وإحسان لا لشيء إلا لأن هذه هي روح الإسلام وتلك هي أخلاقه « هكذا علم رسول الله ﷺ دعاة الأمة كيفية حمل الأمانة والقيام بها حق القيام ومعايشة همومها ودفع ضريبتها عن حب وتفاني من أنفسهم وأوقاتهم وأعصابهم وكريم خلقهم « بل ونبض قلوبهم « حتى لا تؤننى الدعوة من قبلهم « بل تحيى الدعوة ببركة إخلاصهم وتقوى قلوبهم وترعرع بفيض حكمتهم وتنتعش بيقظة وعيهم .

الفصل السابع

[حلماء في مدرسة الرسول ﷺ]

[١] انظر هل للرجل حاجه :

شتم رجل ابن عباس رضي الله عنه فلما قضى مقالته فقال : يا عكرمة ، انظر هل للرجل حاجة فتقضيته ؟ فنكس الرجل رأسه واستحي ^(١) .

[٢] لأغيظن من حرصك على غيظي :

جاء غلام لأبي ذر رضي الله عنه وقد كسر رجل شاة له ، فقال له : من كسر رجل هذه ؟ قال : أنا فعلته عمداً لأغيظك فتضربني فتأثم ، فقال : لأغيظن من حرصك على غيظي ، فأعتقه ^(٢) .

[٣] إني استحي أن يضيق حلمي بأحد رعيتي :

أسمع رجل معاوية كلاماً شديداً فقليل له : لو عاقبته ؟ فقال إني لأستحي أن يضيق حلمي بأحد رعيتي ^(٣) .

[٤] إن كان بقي عندك شيء فقل :

شتم رجل عدى بن حاتم رضي الله عنه وهو ساكت فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا ^(٤) .

[٥] إنما سألني : أمجنون ؟ فقلت : لا .

دخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة فمر برجل نائم فعثر به :

(١) ، (٤) مختصر منهاج القاصدين

فرفع رأسه فقال : أمجنون أنت ؟ ، فقال عمر : لا فهم به الحرس ، فقال عمر :
إنما سألتني أمجنون فقلت : لا ^(١) .

[٦] أشهد إنك لمن أولاد الرسول :

لقى رجل علي بن الحسين - رضى الله عنهما - فسبه ، فشارت إليه
العبيد فقال : مهلاً ، ثم أقبل على الرجل فقال : ما ستر عنك من أمرنا أكثر ،
ألك حاجة نعينك عليها ؟ ، فاستحى الرجل ، فألقى عليه خميصه كانت
عليه وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد إنك لمن أولاد
الرسول ^(٢) .

[٧] وليرفق الشيخ بالشيخ :

قسم معاوية رضي الله عنه قُطُفًا فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه ،
فحلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأتاه فأخبره فقال له معاوية : « أوف
بتدرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ » ^(٣) .
وكأن لسان حاله يقول :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب	وإن كثرت منه إليّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره	واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فأحلم دائباً	أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا	تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

(١) ، (٢) مختصر منهاج القاصدين

(٣) أدب الدنيا والدين .

[٨] اذهبى فانت حرة لوجه الله :

عن عبد الرزاق قال : صبت جارية الماء لعلي بن الحسين ليتهاياً للصلاة «
فوقع الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجه ، فرفع علي بن الحسين وجهه
إليها ، فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : والكاظمين الغيظ ، فقال لها :
كظمت غيظي ، قالت : والعافين عن الناس ، قال لها : عفا الله عنك ، قالت
: والله يحب المحسنين ، قال لها : اذهبى فانت حرة لوجه الله ^(١) .

[٩] ودع للصالح موضعاً :

قال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمع كلاماً : يا هذا ، لا تغرقن في سبنا «
ودع للصالح موضعاً ، فإننا لا نكافي من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله
عز وجل فيه ^(٢) .
من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب

[١٠] غفر الله لك :

شتم رجل الشعبي فقال : إن كنت كما قلت فغفر الله لي ، وإن لم أكن
كما قلت فغفر الله لك ^(٣) .

لا يبلغُ المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويُشتموا فتري الألوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

[١١] والله ما منعه من جوابي إلا هوانى عليه :

الأحنف بن قيس « أحد حلماء العرب الذين ضرب بحلمهم المثل » وقد
بلغ من حلمه أن عمرو بن الأهتم أغرى رجلاً بسبه سباً مقدعاً يثير الحفائظ «
لكن الأحنف ظل صامتاً مطقاً ، فلما رأى الرجل أنه لا يجيبه ولا يأبه له ،

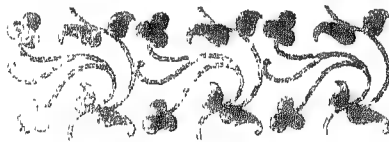
(١) ، (٢) ، (٣) أدب الدنيا والدين .

أخذ بإبهامه فى فمه وجعل يعضه وهو يقول : واسوأته ، والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه ^(١) .

[١٢] وأنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا :

قال عبد الله بن طاهر : كنت عند المأمون فنادى بالخدام يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانياً وصاح : يا غلام ، فدخل غلام تركى وهو يقول : أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام !! إلى كم يا غلام ؟ ، فنكس المأمون رأسه طويلاً ، فما شككت فى أن يأمرنى بضرب عنقه ، ثم نظر إليّ فقال : يا عبد الله : إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاقه خدمه وأنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا ^(٢) .

مجالسهم مثل الرياض أنيقة لقد طاب منها الريح واللون والطعم



الفهرس

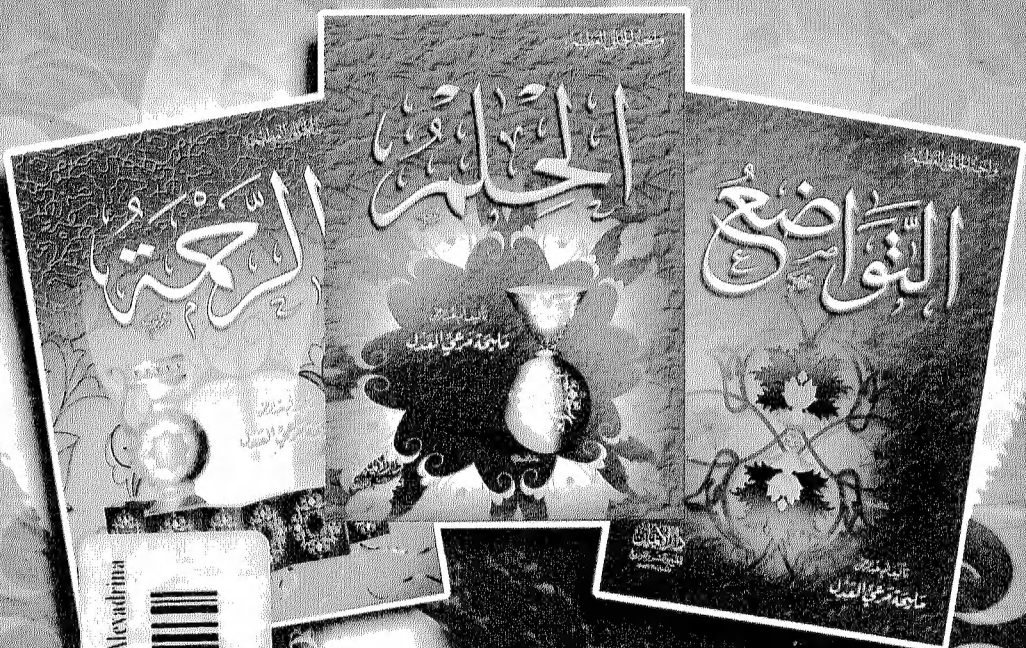
رقم الصفحة

- بين يدي الكتاب ٥
- الفصل الأول [حلمه ﷺ على الرجال] ٩
- المبحث الأول : فإنما بعثتم ميسرين ١٠
- المبحث الثاني : فضحك ثم أمر له بعاء ١٣
- المبحث الثالث : خيركم أحسنكم قضاءً ١٦
- المبحث الرابع : إكلأ لنا الليل ١٩
- المبحث الخامس : أن تأمرني بحسن الأداء ٢٤
- الفصل الثاني [حلمه ﷺ على العصاة] ٢٨
- المبحث الأول : فقد غفرت لكم ٢٩
- المبحث الثاني : لا تثريب عليكم اليوم ٣٤
- المبحث الثالث : اللهم طهر قلبه ٣٨
- الفصل الثالث [حلمه ﷺ بالنساء] ٤٥
- المبحث الأول : غارت أمكم ٤٦
- المبحث الثاني : وجعل يتغير وجهه ٤٩
- المبحث الثالث : ماهى بأول بركتكم يا آل أبي بكر ٥٢
- المبحث الرابع : فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ٥٧

- ٦٥ المبحث الخامس : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة .
- ٧١ المبحث السادس : فأمر أبا أسيد أن يجهزها .
- ٧٣ • الفصل الرابع [حلمه ﷺ على الأبطال] .
- ٧٤ المبحث الأول : أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة .
- ٧٨ المبحث الثاني : فما زالت تلك طعمتى بعد .
- ٨١ المبحث الثالث : فذهبت ألعب بخاتم النبوة .
- ٨٥ • الفصل الخامس [حلمه ﷺ على الخدم والعبيد] .
- ٨٦ المبحث الأول : فجاء بالماء فسقاها .
- ٨٩ المبحث الثاني : يا أنيس اذهب حيث أمرتك .
- ٩٢ المبحث الثالث : إحدى سوءاتك يا مقداد !
- ٩٦ • الفصل السادس [حلمه ﷺ على غير المسلمين] .
- ٩٧ المبحث الأول : فقل ألا نقتلها ؟ قال لا .
- ١٠٣ المبحث الثاني : إن الله يحب الرفق في الأمر كله .
- ١٠٦ المبحث الثالث : دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .
- ١١١ المبحث الرابع : ثم لم يعاقبه .
- ١١٥ المبحث الخامس : اللهم اهد أم أبي هريرة .
- ١١٧ المبحث السادس : اللهم اهد دوساً وائت بهم .
- ١١٩ • الفصل السابع [حلماء في مدرسة الرسول ﷺ] .
- ١٢٣ • الفهرس .

من أحدث إصداراتنا مجموعة

وَأَحْسَنُ الْجُلُوقِ الْعَظِيمِ



Bibliotheca Alexandrina



0299142

69

دار الإيمان
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطباعة والنشر والتوزيع تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦

E-mail: dar_aleman@hotmail.com